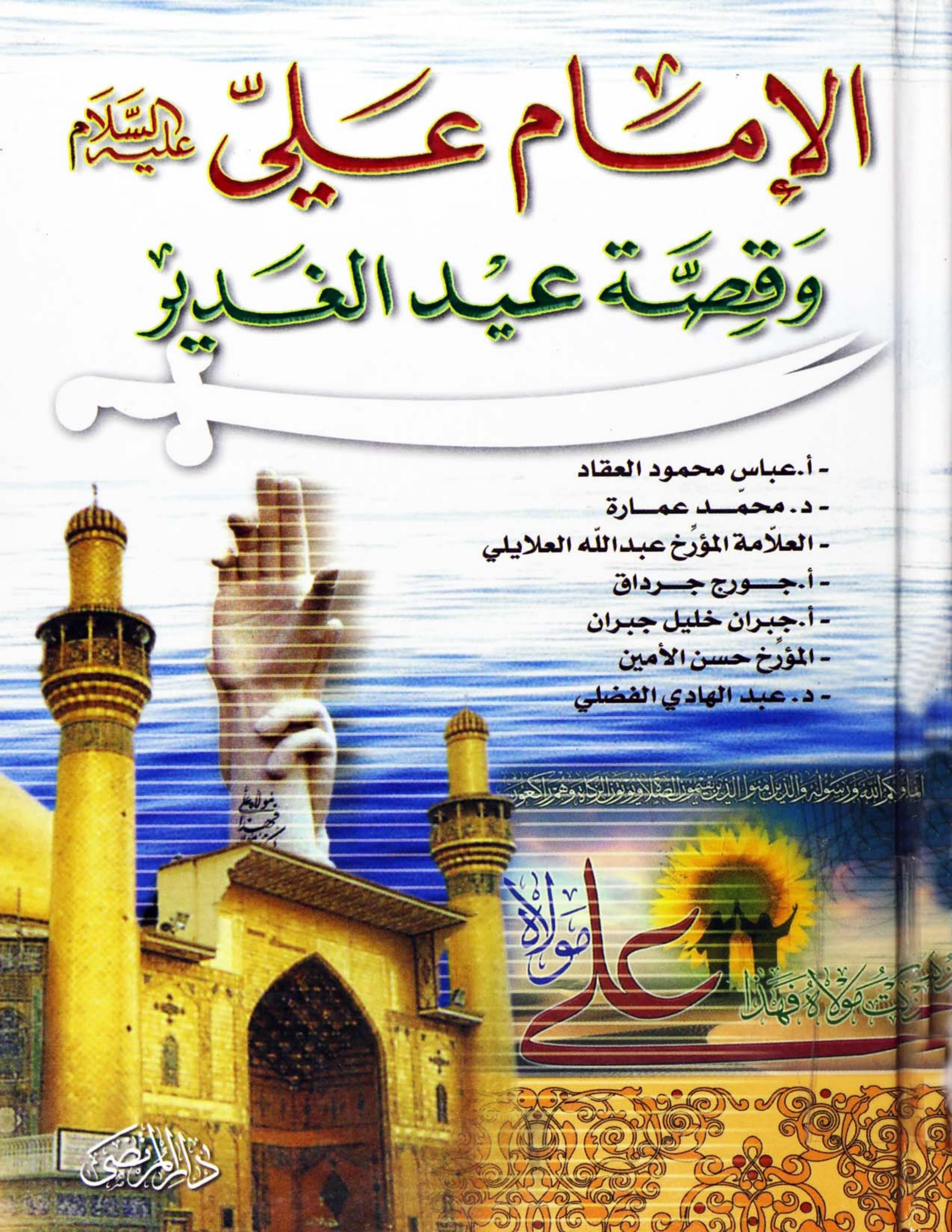

الإمام علي عليه السلام
وقصة عيد الغدير
- أ. عباس محمود العقاد
- د. محمّد عمارة
- العلاّمة المؤرِّخ عبدالله العلايلي
- أ. جورج جرداق
- أ. جبران خليل جبران
- المؤرِّخ حسن الأمين
- د. عبد الهادي الفضلي
علي مولاه
دار المرتضى

الإمام عليّ عليه السلام
وقصّة يوم الغدير

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان –بيروت , ص.ب :١٥٥/٢٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail: mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing –Publishing –Distributing
Lebanon –Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel –Fax: 009611840392
E –mail: mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هجرية

٢٠٠٥ ميلادية

الإمام علي عليه السلام وقصة يوم الغدير

عباس محمود العقاد

الدكتور محمد عمارة

العلاّمة المؤرّخ عبد الله العلايلي

جورج جرداق

جبران خليل جبران

حسن الأمين

الدكتور عبد الهادي الفضلي

دار المرتضى

بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

هي مقالات فكريَّة لنخبة من المفكِّرين تتحدَّث عن الإمام علي عليه السلام، ومكارمه وفضائله، وشيء من أفكاره الإجتماعيَّة والفكرية . . .

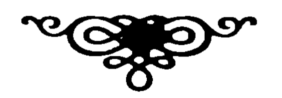
كما تتحدَّث عن يوم الغدير، اليوم الَّذي نصَّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه عليّاً أميراً للمؤمنين وخليفةً له بنصٍّ جليٍّ صريح .

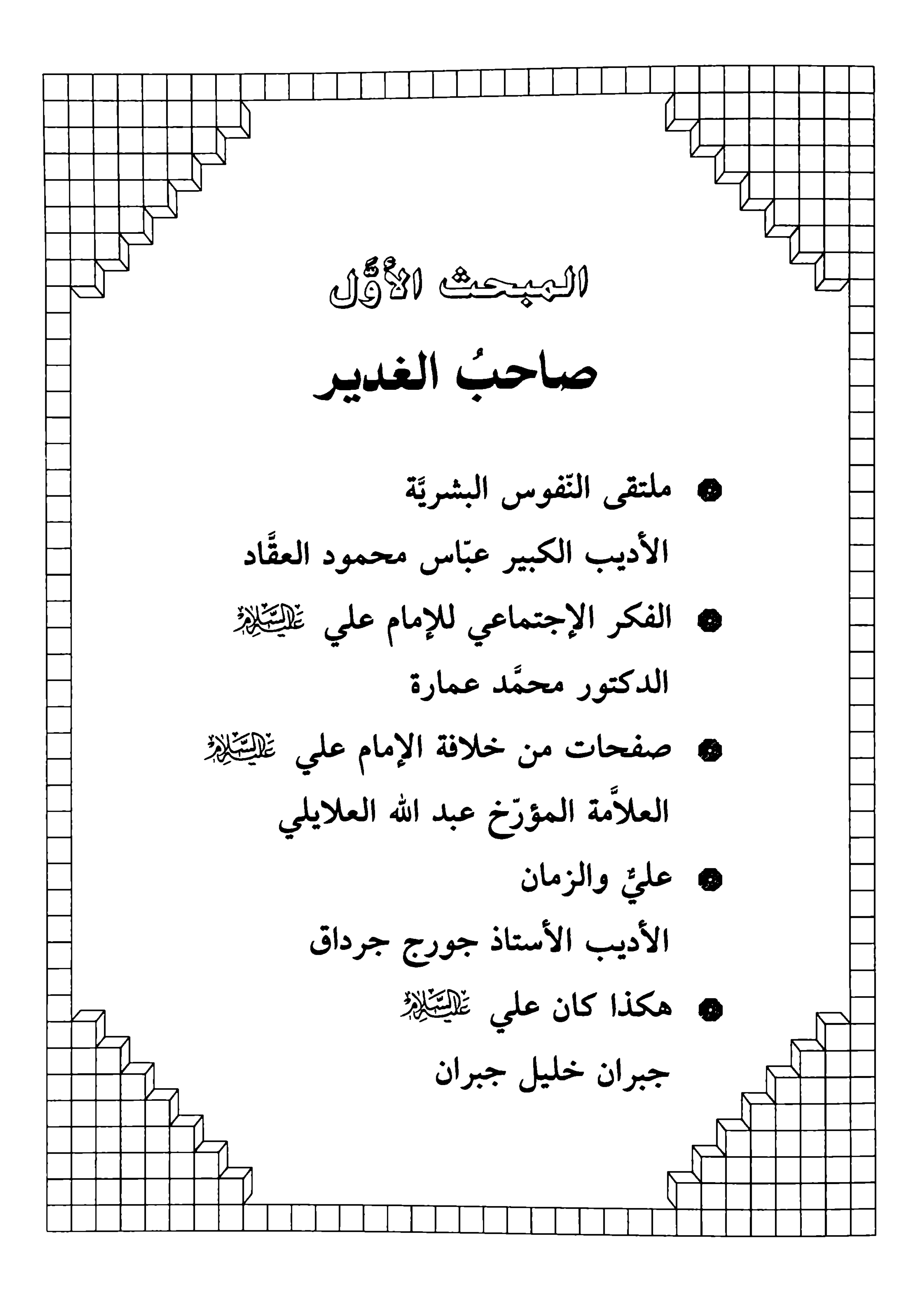
وقد اقتبسنا جلَّ هذه المقالات من دائرة المعارف الاسلاميَّة الشِّيعيَّة للمؤرِّخ السَّيِّد حسن الأمين؛ وهؤلاء الباحثون هم :

- الأديب الكبير عبَّاس محمود العقّاد .
- الدّكتور محمَّد عمارة .
- العلَّامة المؤرّخ عبد الله العلايلي .
- الأديب الأستاذ جورج جرداق .
- الأديب الكبير جبران خليل جبران .

- المؤرّخ السَّيِّد حسن الأمين.
- العلّامة الدكتور عبد الهادي الفضلي.

والله وليُّ التَّوفيق





المبحث الأوّل

صاحبُ الغدير

- ملتقى النّفوس البشريَّة

  الأديب الكبير عبّاس محمود العقَّاد

- الفكر الإجتماعي للإمام علي عليه السلام

  الدكتور محمَّد عمارة

- صفحات من خلافة الإمام علي عليه السلام

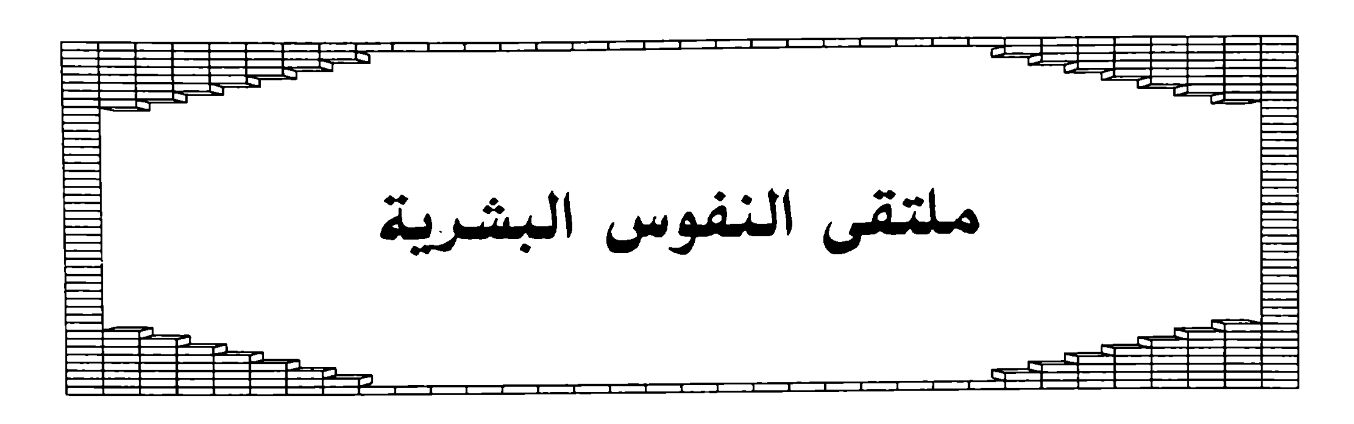
  العلاَّمة المؤرّخ عبد الله العلايلي

- عليٌ والزمان

  الأديب الأستاذ جورج جرداق

- هكذا كان علي عليه السلام

  جبران خليل جبران



ملتقى النفوس البشرية

بقلم: الأديب الأستاذ عبَّاس محمود العقَّاد

في كل ناحية من نواحي النفوس البشرية ملتقى بسيرة علي بن أبي طالب.

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما إتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

في سيرة علي ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم، أو فتياناً عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء.

وفي سيرة علي بن أبي طالب ملتقى الخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية في الأجواء أو تغوص في الأغوار. فهو الشجاع الذي نزعت به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك في تعظيمه شهود العيان وعشّاق الأعاجيب.

وتلتقي سيرته بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة، لأنَّه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية.

وللذوق الأدبي - أو الذوق الفني - ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة، لأنه كان أديباً بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشىء الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين.

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة التي لم تنقطع قط في زمن من

الأزمان، هي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشئة أبداً على رأي من الآراء، أو حق من الحقوق أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين من الأحايين خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإنَّ ههنا للمجال الرغيب القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال:

«ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي» أو حين قال: «يهلك فيّ رجلان، محب مفرط بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني».

وصدق في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين،

وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هنا الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه. ويستتيبهم فيصرون على ما هم فيه أي إصرار.

وهناك الخوارج يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب...

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء يقول أناس: هو الله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله.

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة علي في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية التوق إلى التجديد والإصلاح.

فلقد أصبح اسم علي علماً يلتفُّ به كل مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، وجعل الغاضبون علي كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها

الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المتنفس الذي يستروح إليه كل مكظوم... فمن نازع في رأي، ففي اسم علي شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففي اسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ الإسلامي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ علي بين تواريخ غيره، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصَّر في خلقها التاريخ والمؤرخون.

صفاته

كان علي أول هاشمي من أبوين هاشميين. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المتقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمودة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام.

وربما صحَّ من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلًا مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة، فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين في شيخوخة الآباء.

ونشأ رجلًا مكين البنيان في الشباب والكهولة، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين.

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فرما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلَّا صرعه، ولم يبارز أحداً إلَّا قتله، وقد يزحزخ الحجر الضخم لا يزحزحه إلَّا رجال، ويحمل الباب الكبير الذي يعيى بقلبه الأشداء.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة وربهة الصيت، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن عبد ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم

بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه.

وقد ازدانت شجاعته بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء. . . فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة لا مجاهدة رأي. وهي التورع عن البغي، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورّعه عن البغي عن قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «**لا تدعونَّ إلى مبارزة، فإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع**».

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «**لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون**».

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض،

يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلّا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قوماً فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجباً إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب أتباعه فنهاهم عنه، وهو يقول: «**إنما هو سَبٌّ بسب أو عفو عن ذنب**».

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن عبد ود: «**إني لا أكره أن أهريق دمك**».. ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلّا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدث العرب بفراري، وناشده: «**يا عمرو. إنك كنت تعاهد قومك ألاّ يدعوك رجل من قريش إلي خلتين إلاّ أخذت منه إحداهما**» قال: أجل. قال: «**فإني أدعوك إلى الإسلام أو إلى القتال**».

قال: ولم يا ابن أخي؟... فوالله ما أحب أن أقتلك... فلم يكن له بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلَّا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة: فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله كريز ووقف عليه ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى ثالثة: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟ فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخشي علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتمَّ ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم رجع إلى مكانه.

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوي المروءة من شجاعته بين الشجعان، فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالًا. وظفر بعد معركة الجمل بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم

وسعيد بن العاص وهم ألدّ أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقّبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته. . وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوَّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهره وهو يقول: «**ويحك، إنَّا أمرنا أن نكف عن النساء وهنَّ مشركات أفلا نكفَّ عنهن وهن مسلمات؟**». . .

وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالًا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل أنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم، وقلَّدهن السيوف. فلما كانت ببعض

الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، ومن استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال.

وتعدلها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأصرَّهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وأصحابه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شراً عليه من معاوية وجنده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين.

وتقترن بالشجاعة - ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم - صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء، أو بالإشعاع

للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلَّا كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها، وهي صفة «الثقة» أو الاعتزاز، أو الأدراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهواً وليست هي به ولا هي من معدنه وسمته، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان.

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغني عنه ولا يزال متصلًا بعمله في مواجهة خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه.. مثله هنا كمثل العروض الذي تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كل ما فيها ضرباً من الخيلاء يرضي به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمان وتحدثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس - بل لعلهم أوجبوا عليه - أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله.

وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته، وعلموا أنهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة، وهي أحب القصائد إلى القلوب.

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهاً لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه، وكانت هذه الصفة من صفات علي يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدراً بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء.

مرَّ الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له رسول الله. فقال الزبير: لا يترك علي زهوه. فقال النبي: «**إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم**».

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التي يمتلىء بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه

محتاج إلى مداراتها ولأنه هو لا يقصدها ولا يتعَمَّد إبداءها.

وقد كان مدار هذا الخُلق في علي ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج. وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة جوار يركن لها المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القوم القرشيون بالنبي ﷺ ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام هزيمة لارتاع يومئذٍ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين.. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوى من حرب أولئك القوم.

علي هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلي هذا هو الذي تصدى لعمرو بن عبد ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبي: اجلس. إنه عمرو. فيقول: وإذا كان عمراً؟! كأنه لا يعرف أن يخاف ولا يعرف كيف يخاف ولا يعرف إلَّا الشجاعة التي هو ممتلىء بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث.

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولحاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: «**اسألوني قبل أن تفقدوني**».

ومن شواهدها أنه كان يقول والخارجون عليه يرمونه بالمروق: «**ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين**».

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف. بل كان يقول: «**شر الأخوان من تُكلِّف له**» ويقول: «**إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه**» فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخطئون ما انتظروه، ولا سيما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي اؤتمن عليها، فيحسبون أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك إنما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المغموط المسيء ظناً بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف إظهار تلك الخلائق زهواً كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها، بل كان قصاراه ألَّا يتكلف الإخفاء.

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق علي، أنه كان لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده حتى يعلن له طويته ويقول له: «**إنَّا دون ما تقول وفوق ما في نفسك**».

وكانت قلَّة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعنيه وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها: كان مثلًا يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنَّعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساتراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف من رأي وخليقة.

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها وهي قريبة للشجاعة في نفس الفارس وقلَّما تفارقها. ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترىء الرجل به على الضر والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعلَّه كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما

كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة. واعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، وكان أبداً عند قوله: **«علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك»**.

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة الدنيا أو سيب الدولة وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أموية التي تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب». وقال سفيان: «إنَّ علياً لم يبنِ آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصائص التي يسكنها الفقراء. وعلى هذا الزهد كان على أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال له: «لله أبوك لولا دعابة فيك» وأنه قال لمن سألوه في الاستخلاف: «وإن ولي علي ففيه دعابة».

وأغرق عمرو بن العاص في وصف الدعابة فسماها «دعابة شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدح بها في صلاح علي للخلافة، وإنما نقول أن عمرو بن العاص أغرق في هذا الوصف، وأن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفات علي لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلًا على خلق الدعابة فضلًا عن الدليل على الإفراط فيه. فإن كان لهذا الوصف أثر فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل الشاغل سنين عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه.

وقد كانت لعلي صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية، فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال.

والحق الذي لا مراء فيه أن علياً كان صاحب الفطنة

النافذة، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء، وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأريب اللبيب.

إلى هنا متفق عليه لا يكثر في الخلاف، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين. فيقول أناس أنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضي به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد. وهو قد اعتذر لنفسه بما شابه من هذا العذر حين قال: «**والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس**».

ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين لا نحسبهما تتسعان لجدال طويل، وهما أن أحداً لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع في فض المشكلات من العمل برأي علي، وإن أحداً لم يثبت قط أن خصوم علي كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه، لو وضعوا في موضعه

واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه.

هذه صفات تنتظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوي. وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلَّا الذي اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.

مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفضي منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة «النخوة».

وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه، وأدباً من آداب

الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات الفروسية العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ في حجرها. لأن الغلبة في الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزري به في العلانية.

وهكذا كان علي في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء. فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق أنهما قائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء. فإذا صنع ما وجب عليه، فلينس من شاء ما وجب عليهم، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسارة.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص.

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلًا اختاروه مستوياً

بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة - أي مورد الماء - فهي في أيديهم، وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء. ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: ائت معاوية وقل له: «**إنَّا سرنا مسيرنا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلنا قبل أن نقاتلك، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك وهذه أخرى قد فعلتموها إذا حلتم بين الناس وبين الماء. والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا ثم ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له**».

ثم قال راوي الخبر ما معناه أن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم، ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مدداً إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين العسكريين تراشق بالنبل فطعن بالرماح وضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالضمأ كما أرادوا أن يغلبوه قبل ساعة. . . وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيهم. فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم: «**خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عزَّ وجلَّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم**».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال. وقالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال: «**إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر**».

وسنَّ لهم سنَّة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألَّا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يمدوا يداً إلى مال.

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة

عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء، فصدف بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلًا يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازله في مجال صراع. ولو غير علي أُتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به.

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها، فكان يعرف العدو عدواً حيثما رفع السيف لقتاله.. ولكنه لا يعادي امرأة ولا رجلًا مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه. بل لعله يذكر ماضيه يومئذٍ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلي عليه.

وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من أدب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: «**إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب إلى القول، وأبلغ**

في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، واصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لجَّ به».

إسلامه

ولد علي في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكاد علي أن يولد مسلماً.

بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام، ولم يعرف قط عبادة الأصنام، فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة.

فكان ابن عم محمد وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره . . . وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد، ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل ومعروف: جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوي إليه . .

وملأ الدين قلباً لم ينازعه فيه منازع عن عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى بقاياه . . فبحق ما يقال إن علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وأن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه .

كان المسلم حق المسلم في عبادته، وفي عمله وعلمه، وفي قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال أنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلّا ما يزيده التعليم على الطباع .

كان عابداً يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً عليه .

وكان على محجة في الإسلام لا يحيد عنها لبغيه ولا لخشية. وآثر الخير كما يراه الناس .

وكان دينه له ولعدو دينه، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه..

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعي ولم أَبعْ ولم أهب، فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟... قال النصراني: ما الدرع إلّا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بيِّنة؟... فضحك علي وقال: أصاب شريح. ما لي بينة. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى أمير المؤمنين ينظر إليه... إلّا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فاشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه. أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذا أسلمت فهي لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان.

وأحسن الإسلام علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملًا. فكانت فتاواه مرجعاً للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعثمان وعمر. وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء.

إلَّا أن المزية التي امتاز بها علي بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عرف في عصره أناس تفقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز علي بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

سياسته

تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها من فم إلى فم، ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية

مسلمة، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال. ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلته الألسنة فعزَّ عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال.

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم أن علياً بن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم به بخدع الحرب والسياسة.

وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه، فكان من الطبيعي أن يقال أنه مني بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحاب الدهاء والخدع الناجحة في الحرب أو السياسة.

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فسنرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أن هذين القولين أدنى إلى الصواب.

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه، في عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه: أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هبه استطاع أن

يصنع غير ما ما صنع فما هي العاقبة؟ . . وهل من المحقق أنه كان يفضي بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟ . .

لم نعرف أحداً من ناقديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك. . . إن السؤال عن هذا أو ذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفيه، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة.

والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل وربما كان الأمل في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع في موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصح والمشورة.

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة، أو خالفه فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطىء، ولم ينظروا إليها نظرة الربّان في غمرة العواصف والأمواج.

فالمآخذ التي هي من هذا القبيل، يمكن أن نتحصر في المسائل التالية وهي:

١ - عزل معاوية.

٢ - معاملة طلحة والزبير.

٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر.

٤ - تسليم قتلة عثمان.

٥ - قبول التحكيم.

وهي كلها قابلة على الأقل للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين، فإن يكن خلاف وكان جزم قاطع.. فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأي علي وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه.

قيل في مسألة معاوية أن علياً خالف فيها رأي المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير.

تلك آراء المشيرين من ذوي الحنكة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه، فأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولًا: هل كان الإمام مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله بالشام؟.

وأن نعلم بعد هذا: هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع؟.

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين: أولهما: أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان.

فإذا أقرَّه وقد وُلِّيَ الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه؟ ألا يقولون أنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقول للناس؟.

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟..

فكيف تراهم يهدأون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها، وإن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟.

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل

مستطاع . . فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟ .

كلا على الأرجح، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق. لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته، ويقنع بهذا المنصب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه. لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده.. فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعدَّ للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها، فأي فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلَّا ضاع منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذي يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد. . فماذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي وتبرئته إياه من دم عثمان؟ .

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل التأخير.

وإذا كان هذا موقف علي ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا

كان علي مستفيداً من إقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره.

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من علي، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولاية، وكان يغنم أن يفسد الأمر على علي بين أنصاره، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة علي.

واصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه أن صواب علي في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه.. فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح فأقل ما يقال أن الصواب عنده وعندهم سواء.

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية، لأن الرأي الذي عمل به علي معروف، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحداً من ثلاثة، كلها أغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضماناً من رأيه الذي ارتضاه.

فالرأي الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأنكره

الإمام لأن البصرة والكوفة بهما الرجال والأموال، ومتى تملّكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة، ويثيران بها أنصاره عليه.

والرأي الثاني أن يوقع بهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل، وهو لا ينجح في الوقيعة بينهما إلّا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر، فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى في المدينة على ضغينة مستورة.

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة إلى البصرة، فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلي بالناس، ولولا سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متناقضين.

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فانهزما بعد أيام

قليلة وخرج علي من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة.

والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنَّا الغارة عليه.

والواقع أن علياً قد استراب بما نوياه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة.. فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة».

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم، وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أراد حبسهم جميعاً لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو في ابتداء حكمه لمَّا يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم. وما أكثر المتحرجين في عسكر الإمام

علي من حبس الأبرياء بغير برهان؟ . لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته معهم. وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء.

لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى البصرة بيأس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت «العثمانية» في مكة حزباً موفور العدد والمال. . فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها علي وخرج منها غالباً على الحجاز والعراق، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها.

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر مع أن قيساً بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها، وكان كفؤاً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة، فعزله علي لأنه شك فيه، وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل

الشام، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره.

وكان أصحاب علي يحرضونه على عزله، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه. فعزله وهو غير واثق من التهمة ولكنه كذلك غير واثق من البراءة.

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة، فإن قيساً بن سعد لم يدخل مصر إلَّا بعد أن مرَّ بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة رجال لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة علي في الحجاز.

ولما بايع المصريون علياً على يديه، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له: «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية.

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على علي، فكتب إليه قيس كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة

الفصل بين الخصمين إذ كان ختام كتابه إلى معاوية: «أما متابعتك فانظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه، حتى نرى وترى».

وأراد علي أن يستيقن من الخصومة بين معاوية وقيس، فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة.. فلم يفعل وكتب إليه: «متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأي تركهم».

فتعاظم شك علي وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة... فعزله واستقدمه، وتبيَّن بعد ذلك أنه أشار بالرأي والصواب، وإن ترك المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم، لأنهم هزموا محمداً بن أبي بكر والي مصر الجديد، وجرَّؤوا عليه من كان يصانعه ويواليه.

ولكننا نبالغ على كل حال، إذا علقنا على هذا التصرف الجرائر التي أصابت علياً من بعدها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس

من جوار علي، وقال: «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علي من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه في عامة أموره ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها.

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلًا بين علي وخصومه، فإذا هي أقصرها جدلًا مع براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة.

فقد طالبوه بالعقوبة ولم يبايعوه، مع أن العقوبة لا تكون إلَّا من ولي الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة، ومن هم الذين يؤخذ بدم عثمان منهم من القبائل أو الأفراد.

واعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطاع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، واعفوا أنفسهم منه - وهم ولاة الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار.

وقد تحدث علي مرة في أمر العقوبة من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم

«كلهم قتلة عثمان» فمن شاء العقوبة فليطبقها عليهم جميعاً.

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا.. يؤيدون ولي الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف.

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم، فيخيل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط في لومه لو أنه رفض التحكيم وأصرَّ على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرفضونه.

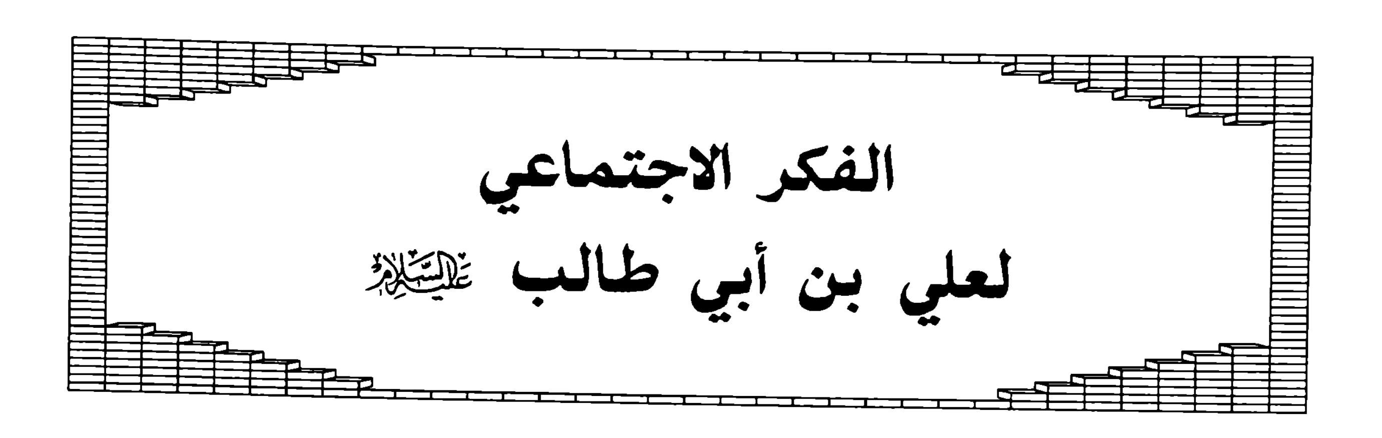
وَقَبِلَهُ بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوب القِتال وذهاب البعض إلى تحريمه.

وبعد أن توعدوه بقتله كقتل عثمان، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب.

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطئوه في

قبول أبي موسى الأشعري، على علمه بضعفه وتردده، ينسون أن أبا موسى كان مفروضاً عليه، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس.. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في الخلافة، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه.. وإن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به إلى حزب علي، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه.

فليس في أيدي المؤرخون الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له علي كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن به وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه.



الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب عليه السلام

بقلم: الدّكتور محمَّد عمارة

لا نعتقد أن بالإمكان دراسة الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، ولا نقيِّم الجانب الثوري في هذا الفكر، إلَّا في ضوء الوضع الاجتماعي لهذا الإمام، وهو الوضع الاجتماعي الوثيق الصلة بوضع الهاشميين الاجتماعي، قياساً إلى أوضاع غيرهم من «البطون»[1] العشرة التي تتكون منها قبيلة قريش، أي الأوضاع الاجتماعية لهذه «البطون».. لا بعد الإسلام فحسب، بل وقبيل ظهوره، ذلك أنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الأوضاع الاجتماعية لهذه «البطون» كانت ذات تأثير كبير في موقفها من دعوة الإسلام، بمحتواها الاجتماعي المتقدم

(١) البطن - في اصطلاح الدراسات القبلية والعشائرية - هو الوحدة التالية - تنازلياً - للقبيلة، عندما تقسم القبيلة، ويليه في التنازل «الفخذ»، فالقبيلة تنقسم إلى بطون، والبطن إلى أفخاذ.. إلخ.. إلخ..

والمتعاطف مع الفقراء والعبيد وضحايا الربا الفاحش، وكل المستضعفين في الأرض، أي مع الجماهير التي أراد الإسلام لهم أن يكونوا هم الأئمة وهم الوارثون. كانت المواقف الاجتماعية «لبطون» قريش العشرة ذات تأثير كبير على موقفها من الإسلام، وأيضاً كانت لها تأثيرات هامة على صراعات السلطة التي ظهرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، من حول منصب الخلافة والإمامة، ومن ثم كانت لها تأثيرات على موقف ممثلي هذه «البطون» من علي بن أبي طالب، وتوليه منصب الخلافة، وأيضاً على موقفه الاجتماعي هو إزاء الثروات التي حازها ممثلوا هذه «البطون»، والمناصب التي تولوها، والتغييرات الاجتماعية التي أراد إحداثها عندما آلت إليه السلطة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

ولما كان هذا الموضوع كبيراً، وتلزم للإحاطة بمعالمه الرئيسية دراسة هامة كبيرة ومقصورة عليه - وهو ما يخرج عن موضوعنا وإطار بحثنا - فإننا نكتفي هنا بتقديم لمحة تكشف الفكرة التي نرى أن بحثها وتحديدها أمر ضروري لفهم الأساس المادي الواقعي للفكر الاجتماعي والثوري عند أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب، وهذه اللمحة تتمثل في رؤيتنا للسلطة العليا التي كانت تتربع على قمة النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام في مكة.. أي - بتعبيرنا المعاصر - الحكومة القرشية التي اعترف العرب في شبه الجزيرة بتميزها وسيادتها.. وهي الحكومة التي احتكرت مناصبها ومسؤوليتها وميزاتها البطون العشرة لقبيلة قريش.. أين كان الفرع الهاشمي - فرع الرسول علي بن أبي طالب - من هذه الحكومة؟.. وما وزن المسؤولية التي كان يتولاها إذا ما قيست بالمسؤوليات الأخرى التي كانت تحتكرها باقي «البطون»؟.. وهو الأمر الذي يعكس الوضع الاجتماعي للفرع الهاشمي، ومن ثم يلقي الضوء على طبيعة الفكر الاجتماعي الذي ساد في صفوف أبناء هذا الفرع، لدى الرسول، ممثلًا في الفكر الاجتماعي المتقدم، ولدى علي بن أبي طالب، وهو الموضوع الذي نعقد له هذه الصفحات.

حكومة العرب قبل الإسلام

كانت هذه الحكومة تتألف من عشرة «وزراء» - إذا استعملنا تجاوزاً مصطلحات عصرنا، مع اعترافنا بالفوارق الكبيرة في المضامين - يمثل كل وزير منهم بطناً من «البطون» العشرة التي تتكون منها قبيلة قريش.. وأهم من ذلك فإن التغييرات التي كانت تصيب هذه المناصب كانت منحصرة في تغيير الأشخاص، أما اختصاص بمسؤولية محددة أي «وزراء» محددة، فكان أمراً مستقراً ودائماً، لأنه مرتبط بوزن كل «بطن» من هذه البطون من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والحربية في محيط القبيلة القرشية العام.

لقد كانت قريش تتألف من عشرة «بطون» هي:

١ - **هاشم**: وكان يمثله في الحكومة «العباس بن عبد المطلب» الذي كان يتولى منصب «سقاية الحجاج» الذين يحجون إلى الكعبة قبل الإسلام.. أي توفير الماء اللازم لشربهم، والإشراف على توزيعه.

٢ - **أمية**: وكان يمثله في الحكومة «أبو سفيان بن

حرب»، وكانت مسؤوليته فيها هي القيادة الحربية لجيوش قريش في القتال إذ كان عنده راية قريش المسماة «العقاب».

٣ - **نوفل**: وكان يمثله في الحكومة «الحارث بن عامر»، وكانت مسؤوليته القيام على الأموال التي ترصدها قريش لإنفاقات موسم الحج، والتي يسمونها: «الرفادة».

٤ - **عبد الدار**: وكان يمثله في الحكومة «عثمان بن طلحة»، وكانت مسؤولياته مرتبطة بالكعبة له سدانتها وحجابتها، والقيم على دار الندوة، التي كانت يومئذٍ بمثابة البرلمان.

٥ - **أسد**: وكان يمثله في الحكومة «يزيد بن زمعة بن الأسود»، وكانت مسؤوليته فيها «المشورة»، إذ كان المرجع في الأمور المشكلة على هذه البطون.

٦ - **تيم**: وكان يمثله في الحكومة «عبد الكعبة - أو عبد الله - بن عثمان»، أي «أبو بكر الصديق» - كما اشتهر اسمه بعد ذلك - وكانت مسؤوليته فيها تقدير الديات والمغارم التي تلزم قريشاً والتعهد بأدائها وتنظيم ذلك، وكانوا يسمون هذه المسؤولية: «الأشناق»..

٧ - **مخزوم**: وكان يمثله في الحكومة «خالد بن الوليد»، وكانت مسؤوليته فيها القيام على الأموال المخصصة للحرب والقتال، وكذلك قيادة الخيل والفرسان في الحرب وكانوا يسمون هذه المسؤولية «القبة والأعنة».

٨ - **عدي**: وكان يمثله في الحكومة «عمر بن الخطاب» وكانت مسؤوليته فيها شبيهة بمسؤولية وزير الخارجية، وكانوا يسمونها يومئذٍ «السفارة».

٩ - **جمح**: وكان يمثله في الحكومة «صفوان بن أمية»، وكان مسؤولاً عن «الأيسار والأزلام» يذهب القوم إليه كي يديرها ويستشيرها قبل إقدامهم على مهمات الأمور.

١٠ - **سهم**: وكان يمثله في الحكومة «الحارث بن قيس»، وكانت مسؤوليته «الحكومة»، أي التحكيم، وكذلك القيام على الأموال الموقوفة على الآلهة التي يعبدونها..

كانت هذه هي حكومة قريش، التي مثلت أعلى سلطة عربية عرفتها هذه البقعة من شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام..

أين بنو هاشم من هذا البناء؟:

وإذا كانت هذه هي المسؤوليات الأساسية التي عرفتها حكومة قريش، والتي توزعتها «بطونها» حسب الوزن المادي والمالي والقتالي الذي اجتمع لكل «بطن» من «بطونها»، فإننا نستطيع أن نقول: إن الفرع الهاشمي من قريش لم يكن يمسك بمسؤولية من المسؤوليات الهامة - مادياً واقتصادياً وحربياً - في تلك الحكومة، وأن مسؤولية «سقاية الحجاج» في موسم حجتهم لا تنهض كي توازي المسؤوليات الأخرى التي كان يقبض أصحابها على رايات القتال أو ميزانياته، أو أموال المغارم والديات، أو السفارة إلى الخارج حيث البلاطات والعروش في القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية.. إلخ.. إلخ..

كان الهاشميون فقراء، ومن ثم فلم تكن لهم المسؤوليات الهامة ولا الخطيرة في حكومة الأغنياء حكومة ملأ قريش وتجارها وملاك قوافل تجارتها وعبيدها.

وعلى هذه الحقيقة، ذات الدلالة الهامة في موضوعنا، تأتي الدلالة والشواهد الكثيرة، والتي نكتفي هنا ببعضها، من مثل:

١ - عندما أخذ الرسول الهاشمي يدعو بطون قريش، بمكة في بداية الإسلام، إلى تعاليمه، انطلقوا يعارضونه من منطلق طبقي صريح وواضح لا لبس فيه. فلقد كانوا يرون في دعوته تلك طموحاً سياسياً واجتماعياً للقيادة، ولبناء مجتمع جديد، وكانوا يرون كذلك - وهو الأهم - أن انتساب محمد إلى الفرع الهاشمي الفقير في قريش يجعله غير جدير بتولي هذا المكان القيادي، وتساءلوا من هذا المنطلق الطبقي: أليس الأحق بذلك غني من الأغنياء في شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد أحد العظماء فيها، وخاصة: عظيم مكة «الوليد بن المغيرة» وعظيم الطائف «عروة بن مسعود الثقفي»؟!.

ولقد ردَّ القرآن الكريم على هذا التساؤل الجاهلي بتقرير حقيقة اجتماعية ثورية وهامة، تقول: إن هذا التمايز الطبقي الذي تؤمنون به، وتجتهدون للمحافظة عليه، وتريدون النبوة لعظيم من العظماء الذين اكتسبوا العظمة بمعاييره ومقاييسه، إن هذا النظام ليس ميزة تستحق المدح والتمسك بها، بل هو سلبية من سلبيات الحياة الاجتماعية، وبلاء أصاب الناس، وما ثمرته إلا تسخير بعض الناس للبعض الآخر، ومن ثم فإن

ميزاته وامتيازاته لا تصلح معياراً على أساسه يختار الله من يختار لدينه الجديد.

جاء هذا التساؤل الجاهلي، ووقع عليه ذاك الرد القرآني في سورة الزخرف، المكية، في آياتها التي تقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ثم استنكر القرآن تساؤلهم ذلك فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ثم حدثهم عن واقع مجتمعهم الطبقي، وكيف أن قسمة الأموال فيه، وما هي عليه من امتيازات للبعض دون البعض، إنما تمثل واقعاً يائساً أثمر إذلال بعضهم للبعض الآخر، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ ثم حدثهم عن ذلك الدين الجديد، ونبيه، وما يناضل المسلمون من أجل بنائه، وكيف أنه أفضل من ذلك الواقع السيء والمنهار الذي يتمسكون به، فقال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

فهو إذن منطق طبقي، كان يحتج أصحابه على دعوة

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣١ - ٣٢. وانظر كذلك تفسير البيضاوي ص٦٧٨، ٦٧٩ - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

الإسلام، لا بنقدها ونقض جوهرها، وإنما بأن الداعي إليها من الفرع الفقير في قريش، وليس من طلقة الأغنياء والموسرين.

٢ - كان في مقدمة الأسلحة التي استخدمها أغنياء قريش ضد المسلمين، سلاح المقاطعة الاقتصادية عندما كتبوا وثيقة بها المقاطعة، وأودعوها في جوف الكعبة، كي تكون لها الحرمة والقداسة لا ينقضها بطن من البطون، وتم عزل المسلمين، اقتصادياً واجتماعياً، في «شعب بني هاشم»، لا يبيعهم أحد طعاماً ولا شراباً ولا لباساً، حتى اضطرَّ الكثير منهم إلى الهجرة للحبشة إلى أن يحين فك ذلك الحصار.. ولو كان الهاشميون أغنياء، ولو كان الذين انخرطوا في الدين الجديد موسورين لما كان هذا الحصار ولا تلك المقاطعة سلاحاً مؤثراً ولكن الملأ من قريش قد استغلوا فقر أنصار الدين الجديد كي يوجعوهم بهذه المقاطعة وذلك الحصار.

٣ - وكما لم ير القرآن في فقر الرسول عيباً ولا منقصة، كذلك لم ير في فقر الذين أسلموا عيباً ولا منقصة للدين الجديد، بل لقد أبصر في ذلك ميزة وأمراً طبيعياً يتفق مع موقف العداء الذي يتخذه هذا الدين من النظام الاجتماعي

الظالم الذي كان سائداً في ذلك الحين. . وحاول القرآن كثيراً أن يبصر أعداء الدعوة الجديدة بأن منطقهم الطبقي هذا ليس جديداً، فلقد تبنَّاه من قبل كل الذين أبصروا المخاطر من التغييرات الجديدة على مصالحهم التي حازوها بالاستغلال، ورغم ذلك فإن تيار التغير الاجتماعي الذي تبشر به الدعوة الجديدة سينتصر كما انتصر من قبل عبر التاريخ. . قال القرآن ذلك لأغنياء قريش وذكر لهم أمثلة من التاريخ لعلهم يتذكرون. . فقصَّ عليهم موقف أسلافهم من أغنياء قوم نوح عندما اعترضوا على دعوته لأن جمهور الذين اعتنقوها هم من الفقراء والعامة، لا من السادة والصفوة والأغنياء. فقال حاكياً قول أغنياء قوم نوح عندما قالوا له: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[1].

وقال المفسرون: إن مرادهم «بالأرذلين» هم العامة والفقراء «الأقلون جاهاً ومالًا»[2]. . وحكى القرآن، في موطن آخر، قول هؤلاء القوم، الصادر من منطقهم الطبقي،

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٢) تفسير البيضاوي ص٥٢١.

عندما قالوا لنوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[1].

كما تحدث القرآن إلى أغنياء قريش عن إرادة أخرى، غير إرادتهم تنطلق من منطق آخر غير منطقهم الطبقي، وتريد أن تحل في المجتمع مقاييس جديدة هي على العكس تماماً من مقاييسهم، فإذا كانوا يريدون السيادة والقيادة لعظيم من العظماء والأغنياء، فإن إرادة الله تريد العكس، أن تكون السيادة والقيادة لهؤلاء الفقراء المؤمنين.. وإن هذه الإرادة هي التي ستنتصر، لأنها هي التي انتصرت عبر التاريخ، فمنطقهم الطبقي هو منطق فرعون، أما منطق القرآن وإرادة المؤمنين به فإنها تسترشد بعبرة التاريخ التي تمثلت في قول القرآن، وهو يتحدث عن رفض منطق فرعون الطبقي، عندما قرر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

٤ - بل لقد كانت معركة الإسلام الرئيسية ضد قريش، جاربوا أنصاره بمكة، وعندما أراد الرسول عرض الإسلام على القبائل الأخرى أقاموا من حوله الحصار والمواقع والعقبات.. وعندما هاجر إلى المدينة غزوه فيها وحاربوه. وعندما تمكن من الانتصار عليهم وتطويعهم لسلطانه التحق كثير منهم بصفوفه لأنه لم يعد أمامهم إلَّا الاختيار بين الإسلام وبين السيف؟!. كان هذا موقف قريش من الدعوة الجديدة، وموقف الدعوة الجديدة من مصالح أغنياء قريش، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها لفظ «قريش» في القرآن كان ذكره في معرض الإنكار عليهم إعراضهم عن الدين الجديد بينما هم يتمتعون ويرتعون في نعيم الله الذي وفَّر لهم مال التجارة والأمن من الأعداء ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾(١).

فهو إذن منطق جديد، وثوري ينتصر به القرآن للعامة

(١) سورة قريش، الآيات: ١ - ٤.

والجمهور والمجموع، ويعلن أن السيادة والقيادة لهم، وأن لهم الإمامة، ولهم ميراث طيبات هذه الحياة.

وكل ذلك - وغيره أكثر منه - يؤكد أن الفرع الهاشمي الذي انبعثت منه أنوار الدعوة الجديدة لم يكن الأكثر مالّا ولا الأعلى نفوذاً ولا الأقوى سلطاناً في مجتمع مكة عندما ظهر الإسلام.. وإن وضعه الاجتماعي هذا كان مصدراً هاماً لمعارضة الأغنياء لتلك الدعوة الثورية الجديدة ووقوفهم ضدها وضد تأثيراتها الاجتماعية على ثرائهم ونفوذهم..

ما بعد الرسول:

ولكن الصراع السياسي والعسكري والاجتماعي والفكري قد انتهى، في شبه الجزيرة العربية بانتصار الدين الجديد، وتوحدت هذه المنطقة تحت رايات الإسلام، وخضعت لسلطان نبي من بني هاشم، الفرع الفقير في قريش، والذي لم يكن سلطانه ملحوظاً في حكومتها قبل الإسلام. وترتبت على ذلك تغييرات اجتماعية جعلت من العبيد والرعاة والفقراء قادة يقودون الحروب، ويؤمون الناس في الصلاة ويجلسون للفصل في المنازعات كقضاة، ويتولون الأمر على الأقاليم،

ويروي الناس عنهم الأحاديث ويلتمسون عندهم علم الدين الجديد.. حدث ذلك وغيره من الآثار الاجتماعية الجديدة والثورية، التي ليس هنا مكان الحديث عنها في هذه الصفحات.

ثم توفي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.. وكان أبرز أبناء الفرع الهاشمي عندئذٍ علي بن أبي طالب، الذي كان يطمح إلى منصب خلافة الرسول، والذي كان يرى في نفسه ويرى فيه عدد من الصحابة، أو من فقراء الصحابة إذا شئنا الدقَّة الضمانة الأساسية لاستمرار المنهج الاجتماعي الذي شهدته شبه الجزيرة على يد دعاة الإسلام، وأيضاً الضمانة الأساسية كي لا يعود ملأ قريش وأغنيائها، الذين التحقوا بالإسلام عندما لم يجدوا طريقاً لمقاومته، أن لا يعودوا للإمساك بالسلطة والسلطان من جديد تحت رايات الدين الجديد وأعلامه؟!.

كان علي يطمح إلى ذلك، وتؤهله لهذا الطموح مؤهلات كثيرة، ليس مكان الحديث عنها هذه الصفحات. ولكن قريشاً - نعم قريش - كانت بالمرصاد، فاجتمع رؤساؤها واختاروا أبا بكر الصديق، - وكان قبل الإسلام وزيراً في حكومتها،

يتولى فيها منصباً هاماً - ومن بعده كان العهد إلى عمر بن الخطاب - وكان هو الآخر وزيراً في حكومة ما قبل الإسلام، يتولى سفاراتها الخارجية - ومن بعده عهد رؤوس قريش بالأمر إلى عثمان بن عفان - هو من بطن أمية ذي السلطان العالي في حكومة قريش الجاهلية - بينما استبعد، حتى ذلك التاريخ، علي بن أبي طالب، أبرز ممثلي الفرع الهاشمي في ذلك التاريخ.

ولقد قالها عمر بن الخطاب صراحة لعبد الله بن عباس، عندما حدَّثه عن أن قريشاً قد قررت أن لا تعطي السلطة للهاشميين بعد وفاة الرسول، فكفى الهاشميين شرف النبوة الروحي والمعنوي؟! أما السلطان السياسي والمادي والدنيوي فلقد آثرت به قريش من كانوا يتولونه قبل الإسلام؟!.. قال عمر لعبد الله بن عباس: «إن الناس قد كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وأن قريشاً اختارت لنفسها فأصابت!!».

ونحن نعتقد أن الملأ من قريش، الذين مالوا بالخلافة عن علي بن أبي طالب، إنما كانوا يخشون من علي نهجاً اجتماعياً ثورياً ومتقدماً - أو على الأقل كان هذا موقف نفر

غير قليل منهم، لا يكنون له المحبة ولا الولاء - ونعتقد كذلك أن هذا التيار القرشي القديم الذي يمثله هذه النفر من الأغنياء، ومن سار في طريقهم، قد حققوا مطامحهم الاجتماعية، على حساب التعاليم الاجتماعية الثورية التي بشّر بها الإسلام، وعلى حساب جماهير الفقراء، عندما تولى الخلافة عثمان بن عفان.. فلقد حدثت يومئذٍ التحولات الاجتماعية التي عارضها علي وأنصاره، والتي استفاد منها أغنياء قريش القدامى، ومن سار في طريقهم الاجتماعي، وهي التحولات التي ثار عليها الناس حتى بلغوا في ثورتهم حد قتل عثمان ثم فرضوا على بقايا رؤوس قريش مبايعة علي بالخلافة كي يقوم بالتغيير لما وقع في ظل حكم عثمان بن عفان.

وحتى نصل إلى الحديث عن التغييرات والأفكار الاجتماعية عند علي بن أبي طالب، لا بدَّ لنا من رؤية تلك الأوضاع الاجتماعية التي استحدثها الناس على عهد عثمان، لأنها هي التي تفسر لنا الثورة عليها وفي ضوئها يمكن لنا أن نرى فكر علي بن أبي طالب الاجتماعي في حجمه الطبيعي وصورته الحقيقية.

التحولات الاجتماعية في عهد عثمان

لقد حدثت بالفعل تحولات اجتماعية في عهد عثمان بن عفان[1] لم تكن موجودة في عهد البعثة ولا في زمن أبي بكر وعمر، ففي عهد الرسول، لم تكن الفتوحات الكبرى قد حدثت بعد، ومن ثم فإن ثروة المجتمع لم تكن ذات وزن كبير، حتى أن الدولة العربية الإسلامية التي قامت يومئذٍ لم تعرف نظاماً مستقراً ومقنناً لماليتها من حيث الضبط والتنظيم للواردات والمصروفات. . ولم يختلف الحال كثيراً في عهد أبي بكر الصديق، لا من حيث الحدود التي امتدت إليها الفتوحات، تقريباً، ولا من حيث ثروة الدولة، . بل لقد تأثَّرت بالانقسامات التي حدثت على سلطة أبي بكر القائمة في «المدينة»، واستنفذت منها الحروب التي سميت «بحروب الردة» قدراً كبيراً من الجهد والنفقات، حتى أن بيت المال - (خزانة الدولة) - عند وفاة أبي بكر، لم يكن به سوى دينار واحد قد سقط وتخلف بطريق الخطأ والنسيان!!.

---

(١) انظر كتابنا (مسلمون ثوار) الفصل الخاص بأبي ذر الغفاري - وكان أبو ذر من حزب علي وشيعته.

وفي عهد عمر بن الخطاب امتدت فتوحات الدولة حتى شملت المجتمعات الغنية الثلاثة التي كانت أهم مصادر للثروة في الامبراطورية العربية: مصر والشام والعراق. وجاءت إلى عاصمة الدولة كنوز القياصرة والأكاسرة، وفيها أكوام من التحف والعملات الذهبية التي ذهل لمرآها كثيرون من الصحابة.

وجاهد كثير من الناس لاقتناء الثروة وبناء الدور المريحة.

ولقد كان الفرع الأموي، من قريش، في مقدمة الذين استفادوا من هذا التطور الاجتماعي الجديد.

بل يبدو أن الفرع الأموي، بزعامة أبي سفيان، قد رأى في تولي عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كي تعود لهم المكانة الأولى التي فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله، من الفرع الهاشمي الفقير من بني عبد مناف.. ولقد ذكر عمار بن ياسر أنه قد حدث «عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان، ودخل داره، ومعه بنو أمية» إذ قال لهم أبو سفيان، وكان قد كفَّ بصره: «أفيكم أحد من غيركم؟.. قالوا: لا..

قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة!! فانتهره عثمان، وساءه ما قال، ونمي هذا القول إلى المهاجرين والأنصار؟!...»[1] فهو إذاً انقلاب سياسي قد حدث، طالما رجاه وانتظره أبو سفيان وبنو أمية، وهي إذاً بداية حقبة من الحكم يعدون أنفسهم لتلقفه كالكرة حتى يصير ملكاً وراثياً يتولاه الصبيان. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا ما يريدون.. ولذلك كان حكم هذا الخليفة بداية لأحداث وتطورات استحدثت في الحياة الاجتماعية الإسلامية، سعى إليها البعض، واغتنمها البعض، وناضل ضدها البعض الآخر.. ومن ثم كانت الصراعات التي برز فيها حزب علي بن أبي طالب، وكانت «الفتنة» - (الثورة) - التي شهدها آخر عهد عثمان بن عفان.

فلقد انتشر كثير من الصحابة، في الأمصار، وأقطعهم عثمان مساحات من الأرض التي كانت ملكية عامة لبيت مال

(١) مروج الذهب ج٢ ص٣٥١ - ٣٥٢.

المسلمين، فوزعت عليهم الأرض التي سبق أن صودرت لحساب بيت المال، والتي كانت مملوكة لكسرى وقيصر والأمراء والقواد الذين حاربوا ضد الفتح الإسلامي لهذه البلاد، وهي التي تسمى أرض «الصوافي»، وكان دخلها على عهد عثمان ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم، كما كان عثمان أول من أقطع أرض العراق[١].

وتغير حال العمال والولاة، فاستخدم عثمان الكثير من أقربائه، وحتى الذين كانوا يعملون على عهد عمر لم يعودوا يخشون شدة عمر، واستبدوا بالأمر من دون عثمان. . ومن حديث لعلي بن أبي طالب، عشية الثورة على عثمان، يعيب عليه فيه ضعفه إزاء الولاة والعمَّال، يقول له فيه: «إن عمر كان يطأ على صماخ من ولي - إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة وأنت لا تفعل. . ضعفت ورققت على أقربائك» وعندما يقول له عثمان: «وهم أقرباؤك أيضاً»؟! يقول له علي: «أجل. . إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم» وعندما يعترض عثمان ويحتج بأنه قد ولى معاوية

---

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية. ص١٤٨.

بعد أن ولَّاه عمر من قبل، يرد علي قائلًا: «أنشدك الله!! هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من (يرفأ)، غلام عمر له؟!» أما الآن «فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ويقول للناس: هذا أمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه؟!»[1].

وانعكست هذه التطورات السياسية والإدارية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى عدد كبير من الولاة والصحابة والعمال. فسعيد بن العاص، والي عثمان على الكوفة، يسير في الناس سيرة منكرة، ويستبد بالأموال دونهم، ويقول عن أرض العراق: إنها بستان قريش؟!.. فيعترض عليه مالك الأشتر بن الحارث النخعي، قائلًا: «أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟!»[2] يحدث هذا مع سعيد بن العاص - الأموي - رغم أنه قد ولي هذا المنصب كي يصلح ما أفسده الوالي السابق الوليد بن عقبة الذي استبدَّ وفسقَ وفجر. وفي

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٣، ص٧٤. طبعة القاهرة سنة ١٣٠١هـ.

(٢) مروج الذهب ج٢ ص٣٤٦.

هذه السيطرة القرشية المستبدة يقول أحد الشعراء الكوفيين:

فـررت مـن الـولـيـد إلـى سـعـيـد
كـأهـل الـحـجـر إذا فـزعـوا فـبـاروا
يـلـيـنـا مـن قـريـش كـل عـام
أمـيـر مـحـدث أو مـسـتـشـار
لـنـا نـار تـحـرقـنـا فـنـخـشـى
ولـيـس لـهـم ولا يـخـشـون نـار(١)

وتتبدى مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، فالزبير بن العوام يبني له عدة دور ضخمة فخمة بالبصرة والكوفة، ومصر، والإسكندرية، وعندما تحضره الوفاة يحصون في ثروته ٥٠،٠٠٠ دينار، وألف فرس، وألفاً من العبيد والإماء.. إلخ(٢).

وطلحة بن عبيد الله التميمي يبتني لنفسه هو الآخر إحدى

(١) شرح نهج البلاغة ج١٧ ص٢٤٢.
(٢) مروج الذهب ج٢ ص٣٤٢.

الدور الفخمة بالكوفة، وأخرى بالمدينة يشيدها «بالآجر والجص والساج»، ويبلغ دخله من ممتلكاته بالعراق وحدها ألف دينار في اليوم الواحد؟ وقيل أكثر من ذلك، وبناحية (الشراة) أكثر مما ذكرناه»[1]!!

- وعبد الرحمن بن عوف الزهري، تصبح ثروته مضرب الأمثال «فعلى مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم» وعندما توفي قدرت ثروته أكثر من مليونين ونصف من الدراهم ولقد بلغ حجم القدر الذي أحضر منها إلى عثمان بن عفان في «البدر» و«الأكياس» قدراً من العظم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه؟!»[2].

ويذكر سعيد بن المسيب أن في ثروة زيد بن ثابت - وكان من المدافعين عن عثمان حين ثار الناس ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار؟!»[3].

---

(١) المصدر السابق، ج٢ ص٣٩٤.
(٢) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٩.
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٣٤٢.

أما يعلى بن منية فإنه يخلف في تركته ٥٠٠،٠٠٠ دينار، تضاف إليها عقارات وديون له على الناس تقوم بمبلغ ٣٠٠،٠٠٠ دينار[1]؟!.

ويشيع في المدينة بناء الدور الفخمة الحديثة، ويتخذون لها الأماكن الجميلة في «الضواحي» . فعلى بعد أميال من المدينة يبني «المقداد» بـ«الجرف» داراً «مجصصة الظاهر والباطن» ويجعل في «أعلاها شرفات»[2] ويصنع مثله بـ(العقيق) «سعد بن أبي وقاص»[3].

ونشهد مصادر التاريخ الإسلامي المعتمدة تسجل على هذا العهد - وللمرة الأولى - بوادر فكر نظري يجتهد كي يبرر للخليفة والحاكم التمتع بالأموال العامة الخاصة ببيت مال المسلمين. . فيروي «الزبير بن بكار» في كتابه (الموفقيات) عن ابن عباس قوله: «لما بنى عثمان داره بالمدينة أكثر الناس عليه في ذلك، فبلغه، فخطبنا. . فقال: أتانا عن أناس منكم

(١) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٣.
(٢) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٣.
(٣) المصدرالسابق، ج٢ ص٣٤٢.

أنهم يقولون: أخذ فيئنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا.. ما لي ولفيئكم وأخذ مالكم؟! ألست من أكثر قريش مالاً؟!.. وهبوني بنيت منزلًا من بيت المال، أليس هو لي ولكم؟!! ألم أقم أموركم، وأني من وراء حاجاتكم؟!. فلم لا أصنع في الفضل - (الزيادة عن حاجات الناس) - ما أحببت؟ فلم كنت إماماً إذاً؟!.. فما لي لا أفعل في فضول الأموال ما أشاء؟!»[1].

كما تتحدث مصادر التاريخ هذه عن استخدام بنات عثمان وتمتعن بالحلي المملوك لبيت المال فيروي «الزبير بن بكار» عن «الزهري» قوله: «لما أتى عمر بجوهر كسرى، وضع في المسجد، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر» وأراد عمر أن يقسمه بين المسلمين، فقال له خازن بيت المال: (يا أمير المؤمنين إن قسمته بين المسلمين لم يسعهم - (لم يكفهم) - وليس أحد يشتريه، لأن ثمنه عظيم، ولكن تدعه إلى قابل - (تؤجله إلى العام القادم) - فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمال فيشتريه منهم من يشتريه). قال: ارفعه فأدخله بيت

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٩ ص٦ - ٢٣.

المال. . . وقتل عمر وهو بحاله، فأخذه عثمان لما ولي الخلافة فحلى به بناته؟!. . »[1].

وتشهد الدولة الإسلامية أول خليفة من خلفائها يترك عند مماته ثروة طائلة، فيحصون لعثمان يوم مقتله «عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار (١٥٠،٠٠٠) وألف ألف درهم (١،٠٠٠،٠٠٠) «وذلك غير قيمة «ضياعه بوادي القرى وحنين» تلك التي قدِّرت بمبلغ ١٠٠،٠٠٠ دينار هذا عدا الخيل والإبل، وغيرها من الممتلكات والمقتنيات[2].

ونحن نود - قبل أن ننتقل للحديث عن أثر هذه التحولات المستحدثة في المجتمع الإسلامي - أن ننبه إلى أن صحبة هؤلاء الرجال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسبق الكثير منهم إلى الإسلام، وبلاءهم الحسن في نشر الإسلام وإقامة دعوته، لم يكن له أن يمنع سعيهم هذا الذي حدث في سبيل الدنيا، لأن النفس البشرية عندما تتاح لها الفرصة لذلك، دونما مانع من القانون ورادع من النظام، فقلَّما تحجم عن السعي في هذا

---

(١) المصدر السابق، ج٩ ص١٦.

(٢) مروج الذهب، ج٢ ص٣٤١ - ٣٤٢.

الطريق. وهذه الموانع قد زالت، أو كادت، ومن ثم استباح الكثيرون لأنفسهم واستحلوا هذا النمط من أنماط الحياة.. ولقد كانت للقوم شبهة حل تجعل لهم هذا الأمر مباحاً لا حرج عليهم فيه.. يشهد لذلك قول عثمان بن عفان عن عبد الرحمن بن عوف، عندما أحضرت له بعض أكياس دنانيره ودراهمه، بعد وفاته: «إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون»[(١)]. أي أنه قد كانت هناك «وجهة نظر» تمثل موقفاً فكرياً يرى أنه لا حرج على الناس ولا على ضمائرهم من السعي في هذا السبيل، وأن التقوى والإيمان لن ينقص منهما جمع الأموال، بشرط أن يتصدق أصحابها ويكرموا الضيوف ويبذلوا منها قدراً معلوماً في بعض وجوه «البر والإحسان».

بل لقد حدث أن استباح البعض ما حرمه الرسول على سبيل القطع في هذا الميدان.. وفي (صحيح مسلم) نقرأ هذا الحديث الشاهد لما نقول: «حدثنا عبد الله بن مسلمة، ابن قعنب، حدثنا سليمان - يعني ابن بلال - عن يحيى - وهو

(١) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٩.

ابن سعيد - قال: كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمراً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**من احتكر فهو خاطىء**». فقيل لسعيد فإنك تحتكر! قال سعيد: إن معمراً، الذي كان يحدث هذا الحديث، كان يحتكر»؟!![1].. فما بالنا باستحداث أمور كانت للبعض فيها شبهة حل؟! ولم يكن في صف الذين أنكروها وحاربوها سوى سلاح الاجتهاد في تفسير النصوص، وقياس الأمر على كليات التعاليم وروح الشريعة الغرَّاء؟!..

وعلى أي الوجوه قلبنا الأمر، فلقد أثمرت هذه التحولات التي شهدها عهد عثمان بن عفان مناخاً اجتماعياً ولد وشهد العديد من التناقضات والصراعات.. ومن الكلمات الجيدة التي تصف تلك الحالة الجديدة قول جمال الدين الأفغاني: أنه «في زمن قصير من خلافة عثمان، تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً وأشد ما كان منها ظهوراً في سيرة وسير العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة، وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى

---

(١) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج١١ ص٤٣. طبعة القاهرة.

«أمراء» وطبقة «أشراف» وأخرى «أهل ثروة وثراء وبذخ»، وانفصل عن تلك الطبقات: طبقة العمال وأبناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس الملك الإسلامي وفتوحاته، ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة، والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال ورجال الدولة. وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة وتوفرت مهيئآت الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم، وفي العمال، وبمن استعملوه وولوه من الأعمال... إلخ.. فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين في المسلمين، تكون طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني: أبي بكر وعمر»[1].

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني. دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ص٤٢١ - طبعة القاهرة سنة١٩٦٨م.

علي يتصدى لتغيير هذا الواقع

ولقد كان صوت علي بن أبي طالب في مقدمة الأصوات التي ارتفعت بالنقد والمعارضة لهذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع العربي الإسلامي على عهد عثمان بن عفان بل لا نغالي إذا قلنا أن صوت معارضته ونقده كان أعلى هذه الأصوات.. ومن ثم فإن حركة المعارضة والنقد، ثم الثورة، ضد هذه الأوضاع الجديدة قد اتخذت من علي رمزاً لها، وقيادة تلتف من حولها، كي تمارس الضغط والنقد والتجريح لأصحاب المصلحة الحقيقية في هذه الأوضاع التي طرأت على المجتمع في ذلك الحين.

حدث ذلك حتى قبل مقتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة.. ومن هنا كانت الوقائع والأحداث التي سجلتها لنا مصادر التاريخ تحكي علاقة علي بالثائرين على عثمان، وموقف علي من تصرفات عثمان.

● فعندما زحفت جموع الثائرين على ولاة عثمان والتغييرات الاجتماعية التي أحدثها.. عندما زحفوا من

الولايات - مصر، العراق واليمن، والشام - على العاصمة - المدينة - يطلبون التغيير، ذهبت هذه الجموع إلى علي وكلموه، وطلبوا منه أن يحمل مطالبهم إلى عثمان، ثم يأتيهم بالجواب، ويحكي علي وقائع مقابلته لعثمان عندما دخل عليه فقال له: «إن الناس ورائي، وقد استفسروني بينك وبينهم. فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل.. وإن شر الناس عند الله إمام جائر. وإني أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول.. الذي يفتح عليها القتل والقتال.. وبين الفتن فيها.. فلا تكونن لمروان - (بن الحكم) - سَيقة يسوقك حيث شاء!..»[1].

فطلب عثمان من علي أن يؤجله الثائرون وقتاً من الزمن يغير فيه المظالم ويجيب فيه المطالب ويحقق الشكايات.. ولكن علياً رفض التأجيل، وطلب إليه التغيير الفوري لما بالمدينة من مظالم، أما مظالم الأقاليم فأجل تغييرها هو الأجل الذي تصل فيه أوامر الخليفة إلى هذه الأقاليم..

---

(١) السيقة - بفتح السين وكسر الياء المشددة وفتح القاف - الذي يساق الدواب.

وبعبارة (نهج البلاغة): قال عثمان لعلي: «كلِّم الناس أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم، فقال له علي: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه!..»[1].

- وفي لقاء آخر بين علي وعثمان ينتقد فيه علي عثمان لميله لبني أمية، وإطلاقه العنان لهم كي يستأثروا بخيرات الناس ويحتازوا حقوقهم، وينبهه إلى خروجه عن نهج الإسلام الذي سار عليه أبو بكر وعمر، وينكر أن يكون عثمان - في نهجه - مساوياً لأبي بكر وعمر، فيقول:

«.. أما التسوية بينك وبينهما، فلست كأحدهما؟! إنَّما وليا هذا الأمر فظلفا -(كفا)- أنفسهما وأهلهما عن ما وعمت فيه وقومك عوم السابح في اللجة.. فحتى متى وإلى متى ؟! ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك!!»[2].

---

(١) (نهج البلاغة) ص١٨٦، ١٨٩. طبعة «الشعب»، القاهرة.
(٢) (شرح نهج البلاغة) ج٩ ص١٥.

● ويبدو أن عثمان قد ظنَّ أو وراء ثورة علي ومعارفه أسباباً يتصل بعضها بحرمانه من الثروة التي يرتع فيها الأمويون والملأ من أغنياء قريش، فاستدعاه يوماً وعرض عليه «صرتان من ورق - (فضة) - وذهب» وقال له: «دونك خذ من هذا حتى تملأ بطنك، فقد أحرقتني»؟!.. ولكن علياً رفض، وقال لعثمان: «**إن كان هذا المال لك كنت أحد رجلين: أما آخذ واشكر، أو أوفر واجهد. وإن كان من مال الله، وفيه حق المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله ما لك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه!**» فاحتد عثمان، وسكت علي، ثم عاد إلى منزله وقد عزم على مقاطعة عثمان، وقال: «الله بيني وبينك إن كنت أمرتك بمعروف أو نهيتك عن منكر!!»[1].

● ومن هنا نستطيع أن نفهم موقف علي من الأحداث التي انتهت بقتل عثمان، وتقييمه لهذه الثورة التي هاجم رجالها منزل الخليفة حيث قتلوه وهو يقرأ القرآن بعد أن حاصروه زمناً طويلًا.. وليس أصدق في التعبير عن موقف علي من هذه الأحداث من قوله هو ذاته عندما يلخص القضية في هذه

(١) المصدر السابق، ج٩ ص١٦.

الكلمات: «. . **إنه قد كان على الناس والٍ - (عثمان) - أحدث أحداثاً، وأوجد للناس مقالًا فقالوا: ثم نقموا فغيروا**. . . »[1].

أما عن حدث القتل ذاته، وعلاقته به، فإنه يتحدث عنه فيقول: «لو أمرت به لكنت قاتلًا، أو نهيت عنه لكنت ناصراً؟!» أي أنه لم يأمر به، ولم ينه عنه، لأنه لو نهى عنه لكان ناصراً لعثمان على ما أحدث من أحداث. . . ثم يقول: «**وأنا جامع لكم أمره - (أمر عثمان) -: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع**»![2].

هذا عن الموقف من عثمان وما أحدث وأحدث الأمويون من تغييرات.

---

(١) (نهج البلاغة) ص٦٦.
(٢) المصدر السابق، ص٥٦ - ٥٧.

.. وضد قريش

ونحن نعتقد أن موقف علي ضد الفرع الأموي من قريش إنما هو جزء من موقفه العام ضد ملأ قريش وأغنيائها، أولئك الذين ناصبوا الفرع الهاشمي العداء منذ ظهر الإسلام، وخاضوا ضده الحروب، ثم تربصوا - حينما هزموا - حتى انقضوا على دولة الدين الجديد تحت راياته وأعلامه مؤملين أن يسلبوا هذه التجربة الثورية الجديدة مضمونها الاجتماعي المتقدم الذي أزاد به الرسول أن يجعل الذين استضعفوا في الأرض هم الأئمة والوارثين؟!. ولذلك فإننا نلتقي كثيراً في خطب علي وأحاديثه بالشكوى من «قريش».. فيقول مثلًا عندما اختاروا عثمان للخلافة بدلًا منه: «**اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي**»[1].

وعندما بويع بالخلافة، وعقد له عهدها أولئك الذين ثاروا على عثمان وسلطان قريش، تصدَّت قريش لسلطانه،

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٨.

وتحركت من خلف الفرع الأموي، تحت حجة الطلب بدم عثمان.. وعن موقف قريش هذا يتحدث علي فيقول: «**ما لي ولقريش!! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم؟!**»[1].. ثم يكتب إلى أخيه عقيل بن أبي طالب فيقول: «... **دع عنك قريشاً وتركاضهم[2] في الضلال، وتجوالهم في الشقاق.. فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله قبلي...**»[3].

بل إن هذا العداء المستحكم بين الفرع الهاشمي - والممثل في علي يومئذٍ - وبين قريش، لم يكن إدراكه والحديث عنه مقصوراً على الهاشميين، فهذا عمر بن الخطاب يشخصه بدقة عندما يتحدث عنه إلى عبد الله بن العباس فيقول: «يا عبد الله، أنتم أهل رسول الله وآله وبنو عمه، فما تقول في منع قومكم منكم؟!

(١) المصدر السابق، ص٦٠.
(٢) التركاض - بفتح التاء وسكون الراء - الجري والإسراع.
(٣) (نهج البلاغة) ص٣٢٠ - ٣٢١.

قال (ابن عباس): لا أدري علتها، والله ما اضمرنا لهم ألّا خيراً..

قال (عمر): «... إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا في السماء شمخاً وبذخاً.. ولعلكم تقولون: أن أبا بكر أول من أخَّركم.. أما أنه لم يقصد ذلك، ولكن حضر أمر لم يكن بحضرته أحزم ما فعل، ولولا رأي أبي بكر فيّ لجعل لكم من الأمر نصيباً، ولو فعل ما هنأكم قومكم. إنهم ينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره؟!»[١].

نعم.. إلى هذا الحد بلغت صراحة عمر في التعبير عن العداء المستكن بين ملأ قريش، وبين الهاشميين، حتى لقد قرر أن العلاقة بينهما هي العلاقة بين الثور وجازره؟!.. ذلك أن الهاشميين - تحت أعلام الإسلام وبواسطته - قد أدالوا دولة قريش الجاهلية، وكان سيف علي من أبرز السيوف التي طالما قطعت رقاب أشراف قريش الذين تصدوا لدعوة الإسلام ودولته في ساحات القتال.

(١) (شرح نهج البلاغة) ج١٢ ص٩.

العزم والإصرار على التغيير الاجتماعي

ولم يكن علي يخفي - حتى على عهد عثمان وقبل توليه الخلافة - عداءه للطبقة الجديدة التي احتازت الأموال، وعزمه الأكيد - إن هو تولى أمور المسلمين - على تغيير هذا الواقع الطبقي الجديد، والعودة إلى نظام المساواة الذي قرره الإسلام وطبقه الرسول ومن بعده أبو بكر.. ومن كلماته الشهيرة التي تعبر عن عزمه هذا قوله: «**لو استوت قدماي من هذه المداحض - (المزالق) - لغيرت أشياء؟!**»[1].. وفي موقف آخر يبدي سخطه لاحتكار بني أمية لثروات الأمة، ويتوعدهم قائلًا: «**والله لئن وليتها لأنفضنهم نفض اللحام الوذام التربة**»[2]، أي لأزيلنهم كما يزيل عامل اللحام التراب عن الحديدة بواسطة النار؟؟!.

وعندما تحقق ما أراد، وبايعه الناس بالخلافة، أعلن ما يمكن أن نسميه - بلغة عصرنا - الثورة الشاملة ضد الأوضاع

---

(١) (نهج البلاغة) ص٤٠١.

(٢) المصدر السابق، ص٨٤.

الاجتماعية والسياسية التي كانت محل نقده ومعارضته على عهد عثمان بن عفان.

١ - **ففي السياسة**: أعلن عزل عمال عثمان وولاته على الأقاليم. ولم يتراجع عن ذلك عندما نصحه الناصحون وأشفق عليه المشفقون وهذا موقف شهير في كل كتب التاريخ لا يحتاج إلى تقديم الأدلة عليه ولا البراهين.

٢ - **وفي ميدان القطائع**: كانت هناك الأرض التي جعلها عمر ملكاً خاصاً لبيت المال، ثم جاء عثمان فأقطعها لأوليائه وأعوانه وولاته وأهل بيته، وبصددها كان موقف علي حازماً وحاسماً.. فلقد ألغى تصرفات عثمان هذه، وقرر رد هذه الأرض إلى ملكية الدولة وحوزة بيت المال، ورفض أن يعترف أو يقر التغييرات «والتصرفات العقارية» التي حدثت في هذه الأرض، وقال عن هذا المال كلمته الحاسمة: «**والله لو وجدته - (أي المال) - قد تزوج به النساء، وملك به الإماء، لرددته.. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق!..**».

ثم أعلن أن التمايز الطبقي الذي رفع من لا يتسحق

وخفض من لا يستحق قد جاء الوقت لتصفيته، وأن الحين قد حان لخفض الذين ارتفعوا ورفع الذين انخفضوا، فقد أقسم والذي بعث محمداً بالحق أنه «**لا بدَّ أن يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا؟!**»[1].

٣ - **وفي ميدان العطاء**: أحدث علي تغييراً ثورياً كان من أخطر التغييرات الثورية التي قرَّرها، والتي أراد العودة بالمجتمع إلى روح التجربة الثورية الإسلامية الأولى بل لعلَّ هذا التغيير أن يكون كذلك الموقف الذي جعل من القوى والأطراف تجمع أمرها وتوحد صفوفها وتتصل لمحاربته، لأنه قد رأت في موقفه هذا نذير خطر إلى امتيازاتها الطبقية والاجتماعية بالزوال.

ذلك أن النظام الذي كان معمولًا به من عهد النبي فيما يتعلق بالعطاء - والعطاء هو نظام قسمة الأموال بين الناس، جنوداً كانوا أم غير جنود - كان قائماً على فرض التسوية بين

---

(١) المصدر السابق، ص٤١ - ٤٢.

الناس في قسمة الأموال بصرف النظر عن أداء الفرد في النضال - سابقاً - مع الإسلام أو ضده، وبصرف النظر عن القبيلة العربية التي ينتمي إليها، وسواء أكان مِن أصل عربي أو كان من الموالي إلخ.. إلخ..

ولما جاء عمر بن الخطاب، ألغى نظام التسوية بين المسلمين في العطاء ثم حدد المعايير التي على أساسها يكون التمييز بين الناس في العطاء، فالسابقون إلى الإسلام، وقريش ثُمَّ الأقربون من قريش، يأتون في المقدمة ثم يكون التوزيع التنازلي في هذا الميدان.

ثم كان عهد عثمان الذي كرَّس القانون السابق ثم قطع على دربه أشواطاً وأشواطاً... حتى أصبح التمايز الطبقي نظاماً بشعاً، بلغت بشاعته حداً جعل الناس يثورون عليه انتهت ثورتهم بقتل عثمان وتولية علي أميراً على المؤمنين.

ومن هنا كان قرار علي العدول عن تمييز الناس في العطاء، والعودة إلى نظام المساواة قراراً من أخطر قرارات الثورية، لأنه كان يعني انقلاباً اجتماعياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالات.. كما كان رد فعل الأغنياء - وفي

مقدمتهم ملأ قريش وأبناؤهم - ضد علي وقراره هذا بداية الثورة المضادة ضد حكمه.

لقد كانت هناك فلسفة اجتماعية تقف خلف موقف علي هذا نستطيع أن نلمسها ونعيها إذا نحن أمعنَّا النظر في كلماته التي يقول فيها: «**إن الله، سبحانه، فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلاَّ بما متِّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك!**»[1].

فهو هناك يؤمن باشتراك الأمة في الثروة، ويقرر أن جوع الفقير مصدره وسببه احتجاز الغني الثروة التي خلقها الله كي يشبع بها هذا الفقير؟!.

- ولقد كان قرار علي التسوية بين الناس في العطاء من القرارات الأولى التي أصدرها عقب بيعته وجاء حديثه عنه في الخطبة التي خطبها في اليوم التالي لبيعته مباشرة، وهي الخطبة التي جاء فيها: «... **ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا**

(١) (نهج البلاغة) ص٤٠٨.

الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة - (الحسان) -، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم - (قيدتهم) - إلى حقوقهم التي يعلمون، فينتقمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً - إن شاء الله - فأغدوا علينا، فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلاَّ حضر..».

فنحن هنا بإزاء موقف ثوري، اجتهد فيه علي لنفسه وللمسلمين، وبما أن الإسلام - ديناً وتشريعاً - لم يكن له

موقف واضح ومقرر بالنصوص في هذا الموضوع - لقد اتخذ فيه أبو بكر موقفاً.. ثم جاء عمر فاتخذ موقفاً آخر.. ثم جاء علي فاتخذ هذا الموقف الجديد - وهو الموقف الذي يعلن المساواة التامة بين الناس في العطاء، سواء أكانوا عرباً أم غير عرب، وسواء أكانوا من السابقين إلى الإسلام أم من الذين تأخروا في الدخول فيه. والذي يلغي اتخاذ السبق إلى الإسلام والفضل في الدين ستاراً أو سبيلًا لاحتياز الثروات والأموال، والذي يدخل في ديوان العطاء من لم يكن قد دخل من قبل فيه.

وكما كان هذا الموقف الثوري أول قرارات علي عندما ولي الخلافة، كانت معارضة الأغنياء لهذا القرار أول معارضة حدثت لعلي في ذلك التاريخ.. وكما يقول أحد شيوخ المعتزلة لمؤرخيهم - أبو جعفر الأسكافي -: فلقد «**كان هذا - (الأمر) - أول ما أنكروه من كلامه. وأورثهم الضغن عليه، وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية**»[1].. بل وثارت بين

---

(١) المصدر السابق، ج٧ ص٣٧.

المعارضين وبين علي المناقشات والمجادلات حول هذا الموضوع، إذ استنكر الأغنياء والأشراف أن يتساووا بالموالي وبمن كانوا غلماناً وأرقَّاء عندهم بالأمس القريب؟! فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم؟! فقال (علي): «**نعطيه كما نعطيك؟! فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضل أحداً على أحد**»[1].

ولقد كان في مقدمة الذين اعترضوا على موقف علي هذا: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم «ورجال من قريش وغيرها».. بل لقد بلغوا في معارضتهم لقرار التسوية هذا حد نقض بيعتهم لعلي وإعلان الحرب عليه، تحت ستار الطلب بدم عثمان، على حين كانوا هم الذين تقدموا الناس في الثورة على عثمان؟!!..

وإزاء هذه المعارضة شنَّ علي بن أبي طالب حملة ضد هذا الفريق، وألقى عدة خطب أوضح فيها موقفه الفكري

---

(١) المصدر السابق، ج٧ ص٣٨.

والأسس التي بنى عليها اجتهاده هذا. . فقال مثلًا: « . . **أما هذا الفيء فليس لأحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرض به فليتول كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه. .** »(١).

بل لقد دارت مناقشة مباشرة في مواجهة جرت بين علي وبين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام - وهما اللذان قادا الحرب ضده - حول هذا الموضوع. . . فقال لهما علي: «ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟».

قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم، إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلَّا كرهاً.

---

(١) المصدر السابق، ج٧ ص٤٠.

فقال علي: **أما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء! فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.. وأما قولكما: جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ولا آثرهم في السبق، والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما إلاَّ هذا»**.

فقال الزبير في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علي! قمنا له في أمر عثمان حتى قتل، فلما بلغ منا ما أراد جعل فوقنا من كنا فوقه!!..»[1].

فقال علي - لما عاتبه بعض أصحابه على التسوية في العطاء، وطلب تمييز البعض إرضاء للخصوم -: «**أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! والله لا أطور -**

(١) المصدر السابق، ج٧ ص٤١ - ٤٢.

(آمر) - به . . لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟! . . »[1] .

كانت هذه وقفة - بل ثورة - علي ضد التمايز الطبقي الذي استشرى ورسخ على عهد عثمان . . وهو الاستشراء والرسوخ الذي يتحدث عنه شارح (نهج البلاغة) - «ابن أبي الحديد»- ، فيقول: «فإن قلت: إن أبا بكر قسم بالسواء كما قسمة أمير المؤمنين علي، ولم ينكروا ذلك كما أنكروه أيام أمير المؤمنين علي، فما الفرق بين الحالتين؟!» . . ثم يجيب ابن أبي الحديد فيقول: «أن أبا بكر قسم محتذياً لقسم رسول الله فلما ولي عمر الخلافة، وفضل قوماً على قوم، ألفوا ذلك ونسوا تلك القسمة الأولى وطالت أيام عمر وأشربت قلوبهم حب المال وكثرة العطاء. وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرنوا على القناعة، ولم يخطر لأحد من الفريقين أن هذه الحال تنتقض أو تتغير بوجه ما، فلما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألف أمر شقَّ

---

(١) (نهج البلاغة) ص١٥١.

عليه فراقه وتغيير العادة فيه، فلما ولي أمير المؤمنين علي أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله وأبي بكر، وقد نسي ذلك، ورفض، وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقَّ ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة ومفارقة الطاعة..»[١].

نعم.. كان هذا هو موقف علي - بل كانت هذه ثورةٌ من الثورات التي فجرها في المجتمع العربي الإسلامي عندما ولي أمره - ولم تثن عزمه عن موقفه هذا تلك المخاطر التي لاحت أمامه في الشقاق الذي بداه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، ثم في الحرب التي أشعلاها ضده بعد أن نقضا بيعتهما إياه.. كما لم تثنه عن موقفه هذا الحرب التي أعلنتها قريش - خلف الفرع الأموي بزعامة معاوية - ضده وضد سياسته الاجتماعية.. بل لقد ازداد استمساكاً بفكره الاجتماعي هذا، وإصراراً على تطبيق روح الإسلام الداعية إلى المساواة.. وحتى عندما جاءته الأخبار بأن الأغنياء والأشراف الذين

(١) (شرح نهج البلاغة) ٤٢ - ٤٣.

بايعوه في المدينة وفي الأقاليم قد أخذوا يتسللون إلى الشام وينضمون إلى جيش معاوية، ظلَّ مستمسكاً بموقفه هذا المنحاز إلى المساواة.. وفي هذا الصدد نجده يكتب إلى «سهل بن حنيف» الأنصاري - عامله على المدينة - يقول: «.. **أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم.. فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها.. قد عرفوا العدل ورأوه. وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً!!**»[١]، وعندما بلغه أن عامله على «أردشير خرة» - مصقلة بن هبيرة الشيباني - يفضل أهله على غيرهم في العطاء كتب إليه: «.. **بلغني عنك أمر أن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك.. إن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء..**»[٢].

كما يكتب إلى الأسود بن قطيبة - صاحب جند «حلوان» -: «**أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من**

(١) المصدر السباق، ج١٨ ص٥٢.
(٢) (نهج البلاغة) ص٣٣٤ - ٣٢٥.

العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض من العدل. .»[1].

وعندما يولي أمر مصر إلى «الأشتر النخعي» يكتب له في عهده فيقول: «**وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة. . فعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم**»[2].

نعم. . كانت هذه سياسية علي بن أبي طالب، موقفاً أصيلًا تمسك به، ولم يرهب المخاطر الحقيقية التي تهددت سلطته بسببها، وهي المخاطر التي أودت بسياسته، بل وبحياته، وهو الأمر الذي عبر عنه عبد الله بن العباس، عندما كتب إلى الحسن بن علي، بعد موت علي والبيعة للحسن فقال: «. . . **واعلم أن علياً أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية لأنه آسى - (ساوى) - بينهم في الفيء وسوى بينهم في العطاء، فثقل عليهم ذلك! . .»**[3].

(١) المصدر السابق، ص٣٥١.
(٢) المصدر السابق، ص٣٤٧.
(٣) (شرح نهج البلاغة) ج١٦ ص٢٣.

على أن هناك حقيقة هامة في الفكر الاجتماعي الثوري لعلي بن أبي طالب لا بدَّ من التنبيه عليها، وهي أن الرجل لم يتخذ موقفه الثوري هذا ضد جمع الثروة واحتيازها تحت تأثير الزهد في الدنيا والرغبة عن نعيمها - كما قد يظن البعض - فالرجل كان من أنصار أن يجعل الإنسان لنفسه حظاً طيباً من طيبات هذه الحياة، بل وأن تظهر آثار نعم الحياة على الناس، فهو القائل: «... **وليرَ عليك أثر ما أنعم الله به عليك**..»[1]. كما كان عدواً للفقر كارهاً له مدركاً للأخطار التي يتهدد بها حياة الناس.. وذلك الأمر يتجلى في كلماته التي يقول فيها: «**إن الفقر (هو) الموت الأكبر... الفقر يُخْرِسُ الفَطِنَ عن حجته**..» وعن الفقر تحدث إلى ابنه محمد بن الحنفية فقال: «**يا بني، إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل داعية للمقت**..» وعن موقفه هو من الفقر كان دعاؤه إلى الله: «... **اللهم صن وجهي باليسار - (الغنى) - ولا تبذل جاهي بالاقتار. فأسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك،**

---

(١) (نهج البلاغة) ص٣٥٩.. من كلماته إلى «الحارث الهمذاني».

وابتلي بحمد من أعطاني، وافتتن بذم من منعني!» بل لقد بغلت عبقرية الإمام في هذا المقام إلى الحد الذي أدرك فيه العلاقة الوثيقة بين حب الإنسان لوطنه وبين ما يكفله هذا الوطن لأهله من حقوق مادية تيسر لهم فيه أمور الحياة... وهو ما نسميه الآن - بلغة عصرنا - «المضمون الاجتماعي والاقتصادي للوطنية».. وعن هذا المعنى العميق تعبر كلمات الإمام علي الجامعة التي تقول: إن «**الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة**»؟!! وإن «**المقل غريب في بلدته...**»[1].

فهو موقف اجتماعي إذن.. وفكر منظم يستند إلى فلسفة تؤمن بالمساواة بين الناس.. وليس بموقف الزاهد المحب للفقر الهارب من زينة الحياة الدنيا وزخرفها، كما يتصور بعض الناس شخصية أمير المؤمنين.

(١) المصدر السابق، ص٣٦٦، ٣٧٣، ٤٠٧، ٢٧٥، ٣٥٩.

طبقات المجتمع ومكانـها

بل إن هذا الموقف الذي ألمحنا من خلال الحديث عنه إلى فكر الإمام علي المتعلق بالثروة والمساواة بين الناس إزاءها، ليس سوى جزئية من الجزئيات التي ينتظمها موقف عام وتصور كلي كان لدى الرجل إزاء المجتمع الذي حاول أن يقيم دعائمه في ذلك التاريخ.. وهو تصور نستطيع أن نستشف قسماته وملامحه إذا نحن أمعنَّا النظر في تلك الوثيقة الهامة التي كتبها إلى الأشتر النخعي عندما ولاه على مصر.. ففيها نجد، ضمن ما نجد:

(أ) اعترافه بالواقع الذي يقسم المجتمع إلى طبقات..

(ب) وحديث عن العاملين بالأرض، والموقف أزاءهم.

(ج) ثم حديث عن طبقة التجار والصنّاع.

(د) ثم حديث عن المساكين..

(هـ) وأخيراً.. الحديث عن «الخاصة»، والموقف الذي يجب على الوالي عندما يتعامل معهم.

وفي كل ذلك نطالع ملامح واضحة لفكر اجتماعي متقدم تحلى به الإمام علي في الوقت الموغل في التاريخ.

١ - انقسام المجتمع إلى طبقات:

وهو انقسام تحدث عنه الإمام علي وأوضح معالمه بالتفصيل... كما ذكر في ثناياه ما يترابط ويتعلق بهذه الطبقات من «الفئات».. فعنده أن من طبقات المجتمع وفئاته: الجنود - والكتاب - والقضاة.. والعمال على الأقاليم والقائمون على شؤون جهاز الدولة.. والفلاحون الذين يدفعون الخراج عن الأرض، مسلمين كانوا أم معاهدين... والتجار وأهل الصناعات.. ثم أهل الحاجة من المساكين، الذين يسميهم: الطبقة السفلى.. وعنده كذلك أن هناك ارتباطاً بين هذه الطبقات والفئات يجعل من جميعها كلًا متكاملًا وجسماً واحداً، وأن الرباط الذي يربطها ويحفظ توازنها هو العدل الذي يجب أن يتوافر لها من قبل الحكام..

أما كلماته التي تحكي عن ذلك فهي التي يخاطب بها «الأشتر النخعي» فيقول: «... **واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلاَّ ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها:**

جنود الله، ومنها: كتاب العامة والخاصة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الانصاف والرفق، ومنها: أهل الجزية والخراج، من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها: التجار وأهل الصناعات، ومنها: الطبقة السلفى من ذوي الحاجات والمسكنة... فالجنود حصون الرعية.. وسبل الأمن.. ثم لا قوام للجنود إلاً بما يخرج الله لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلاً بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتَّاب. ولا قوام لهم جميعاً إلاً بالتجار وذوي الصناعات...»[1].

٢ - الذين يفلحون الأرض:

ولقد احتلت مكانة الطبقة التي تفلح الأرض وتستزرعها مكاناً بارزاً وهاماً في الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، بل أن حديثه عنها ووصاياه بشأنها تجعلنا نقول: إن فكره الاجتماعي قد جعل مكان هذه الطبقة أبرز مكان وأهمه بالقياس إلى باقي الطبقات فقد كانت المجتمعات التي فتحت

---

(١) المصدر السابق، ص٣٢٧.

- في العراق والشام ومصر - مجتمعات زراعية بالدرجة الأولى، وكان الخراج - ضريبة الأرض الزراعية - أهم مصدر من مصادر الدولة، وكان المرتبطون بالأرض يمثلون الأغلبية العددية للسكان، ومن هنا - مع فكر الرجل الاجتماعي المتقدم - كان المكان الهام والبارز لهذه الطبقة في فكره الاجتماعي.

فهو يطلب من واليه على مصر أن يرعاهم ويتفقد أمرهم، لأن أمر سائر طبقات المجتمع متوقف على أمرهم.. ويرسم له فلسفة تدعو إلى التعمير كوسيلة تثمر بالتبعية تحصيل ضريبة الخراج، فالتعمير والاستصلاح أولًا، ثم التفكير بعد ذلك في تحصيل الخراج.. فيقول له: «**وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلاَّ بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلاَّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلاَّ قليلاً. فإن شكوا ثقلاً أو علة.. خففت عنهم بما ترجو أن**

يصلح به أمرهم. فلا يثقلن عليك أي شيء خففت به المؤونة عنهم.. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر!!»[1].

ثم يحدد لعمال الخراج وجباة الضرائب وظائفهم، فهم ليسوا بمتسلطين، وإنما هم القائمون على خزائن الأموال، وهذه الخزائن إنما هي للرعية أصلًا، ومن ثم فإنهم «وكلاء الأمة» كما هم «سفراء الأئمة» ولذلك فهو يدعوهم للإنصاف ويقول لهم: «.. **فانصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم**» إذا حلَّ أجل خراجهم ولم يتيسر لهم الأداء[2]..

وفيما يتعلق بسلوك الجهاز الحكومي القائم على جمع الضرائب وجباية الخراج، يزخر الفكر الاجتماعي للإمام علي بمجموعة من القواعد والوصايا التي ترسم العلاقة بين هذا الجهاز وبين الفلاحين، وتحدد الحدود التي يجب أن لا يتعداها أهل الجهاز.

فهو يطلب من عامل الخراج أن لا يُفْزِعَ الناس ولا يروعهم

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٣٢.

ولا يظهر لهم الكراهة.. وإذا دخل مكاناً لجباية ضرائبه فلينزل بعيداً عن موضع أموال الناس، ولا يذهب إلى مكان ثرواتهم إلَّا بإذنهم ودعوتهم.. ولا يطلب خراجاً إلَّا ممن يعترف راضياً بأن لديه النصاب الذي يجب فيه الخراج.. وعند القسمة وتحدد نصيب بيت المال، يقسم عامل الخراج ويدع الاختيار لصاحب المال..

وفوق ذلك كله يقرر الإمام علي بأن هناك حداً أدنى لمستوى المعيشة يلزم توفيره للإنسان فلا يجوز الاستيلاء على شيء منه وفاء بدين أو خراج مستحق للدولة عند المواطنين، وهذا الحد الأدنى يتمثل في : كسوة الإنسان، صيفاً وشتاء، وأدوات عمله في الأرض، بما فيها الدواب والعبيد..

لم يعلن تحريم العقوبات البدنية ويمنع استخدامها كوسيلة للكشف عن الأموال التي يعتقد عمال الخراج أنها مخبأة ومستورة لدى الناس.. ويقرر منع المصادرات على الإطلاق، سواء أكان المواطن مسلماً أم غير مسلم، اللهم إلَّا إذا تعلق الأمر بأدوات قتال يستخدمها البعض في الاعتداء على الإسلام والمسلمين؟!.

وعن هذه المبادىء والقواعد والوصايا والقوانين يتحدث الإمام علي إلى عماله على الخراج فيقول: «.. **فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنكم خزّان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة. ولا تحشموا - (تغضبوا) - أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يحتملون عليها ولا عبيداً ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسن مال أحد من الناس، مصل ولا معاهد، إلاَّ أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام..**»[1].

وفي «بيان عام» كتبه وصية لمن كان يتولى أمر الخراج، تحدث إلى عامل الخراج يقول: «... **ولا تروعن مسلماً، ولا يجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار.. فتسلم عليهم.. ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم**

(١) المصدر السابق، ص٣٣٢.

حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم - (أي قال لك: نعم) - فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلاَّ بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها؟ ولا تسوءنَّ صاحبها فيها..»[١].

ثم يستطرد الإمام علي - في موطن آخر - فيحذر عمال الخراج من ظلم الرعية وخيانة الأمانة، قائلًا لهم: إن **«من استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم ينزه نفسه ودينه عنها، فقد أحلَّ بنفسه، الذل والخزي في الدنيا، وهو في الآخرة أذل وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة..»**[٢].

هذا عن الذين يفلحون الأرض من طبقات المجتمع.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠٠.

٣ - طبقة التجار والصناع:

أما أصحاب التجارات وأرباب الصناعات فلقد نبَّه الإمام علي عامله في مصر إلى أهمية دورهم ومكانهم في المجتمع، فهم الذين يجلبون احتياجات الناس من مصادرها إلى حيث ييسرونها لمحتاجيها، وهم الذين تقوم بهم وعليهم مرافق البلاد، ومن ثم فإن على الوالي أن يتفقد شؤونهم ويرعى أحوالهم. . . ولكنه يلفت نظر واليه إلى ما في هذه الطبقة من سلبيات وعيوب اجتماعية واقتصادية، ففيهم يتفشى البخل والشح، والرغبة في الاحتكار والاستغلال، فعل الوالي أن يتصدى لمنع كل ذلك ومطالبة أصحابه، بل والتنكيل بهم، في غير إسراف؟!. . فيقول للأشتر النخعي «. . . **ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات ، وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله - (أي المتجول في البلدان) - والمترفق ببدنه - (أي المتكسب بعمله اليدوي) - فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها. فتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي**

بلادك. . واعلم - مع ذلك - أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين: من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة -(احتكاراً) - بعد نهيك إياه فنكِّل به وعاقبه في غير إسراف. .»[1].

٤ - الطبقة السلفى:

ثم يوصي عامله على مصر خيراً بالطبقة السلفى من طبقات المجتمع، وهم الذين لا قدرة لهم على الكسب والتكسب، ومن ثم فإن لهم - في فكر علي الاجتماعي - حقوقاً مقررة ومقدسة في بيت المال. . وفي هذه الطبقة يعد علي: **«العاجزين عن العمل من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى»** - أي أصحاب الأمراض والعاهات المزمنة - وكذلك اليتامى وكبار السن، من **«أهل**

(١) المصدر السابق، ص٣٤٢.

اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة لهم». وكذلك الذين يمنعهم الحياء عن سؤال الناس رغم حاجتهم.. ولكل هؤلاء يطلب الإمام علي تخصيص قسم من أموال «**صوافي الإسلام في كل بلد**» - أي من الأموال العامة الخاصة بالدولة -، وإن يتفرغ لرعاية أمرهم وبحث أحوالهم، وعرض شأنهم على الوالي قوم أهل ثقة «**ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع،، فليرفع إليك أمورهم..**».. بل، وأكثر من ذلك، فإن على الوالي أن يخصص من وقته قسماً يتفرغ فيه لأمور هذه الطبقة، بعد أن يبعد عنهم جنوده وحرَّاسه وأعوانه، حتى يتحدثوا إليه في قضاياهم واحتياجاتهم ومظالمهم دون رهبة، وفي طلاقة لا تحجب ألسنتهم دونها «تعتعة» مصدرها الخوف والإرهاب، فيقول له: «... **وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه. وتقعد عنهم جندك وأعوانك.. حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع...**»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٢ - ٣٤٣.

٥ - طبقة «الخاصة»:

ونحن نعتقد أن كلمات الإمام علي التي تحدث بها إلى عامله على مصر - الأشتر النخعي - هي من أكثر الكلمات حسماً ووضوحاً في الدلالة على الموقف الاجتماعي المتقدم والفكر الثوري الذي كان لدى هذا الإمام العظيم... فهو يطلب من واليه أن يكون اعتماده دائماً وأبداً على «العامة» دون «الخاصة»، لأن «العامة» هم «**عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء**».. بينما «الخاصة» لا همَّ لهم إلَّا مصالحهم الذاتية الضيقة، ومطالبهم الأنانية الفردية، ثم هم يضعون أنفسهم في خدمة كل ظالم بصرف النظر عن الدول والعهود!!.. ثم يطلب إليه أن يكون يقظاً إلى أطماع طبقة «الخاصة»، فهم يريدون «الاستئثار» بالأموال والاحتكار للمزايا، و«التطاول» على الرعية، وهم يجنحون دائماً إلى «قلة الإنصاف»... ثم ينهاه عن أن يهبهم الهبات أو يقطعهم الاقطاعات، أو يسمح لهم بتسخير الناس لديهم أو الغفلة عن محاولاتهم الاستئثار بالمنافع العامة، مما يجلب لهم المنفعة، ويسبب النقد والسخط على الدولة والولاة؟!.. وعن كل ذلك يقول الإمام علي للأشتر النخعي: «.. **ثم إن للوالي**

خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال؟!. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك - (خاصتك وقرابتك) - قطيعة (إقطاعاً ومنحة من الأرض) - ولا يطمعن منك في إعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس من شرب أو عمل مشترك، يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك - (أي منفعته الهنيئة) - لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة.. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين والعدة للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صفوك لهم وميلك معهم!!»[١].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٦.

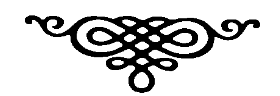
ثم ينصح واليه أن لا يتخذ له وزيراً قد شارك في خدمة سلطة ظالمة من قبل فيقول له: « . . **إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة. وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم - (ذنوبهم) - وأوزارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه. .**»[(١)].

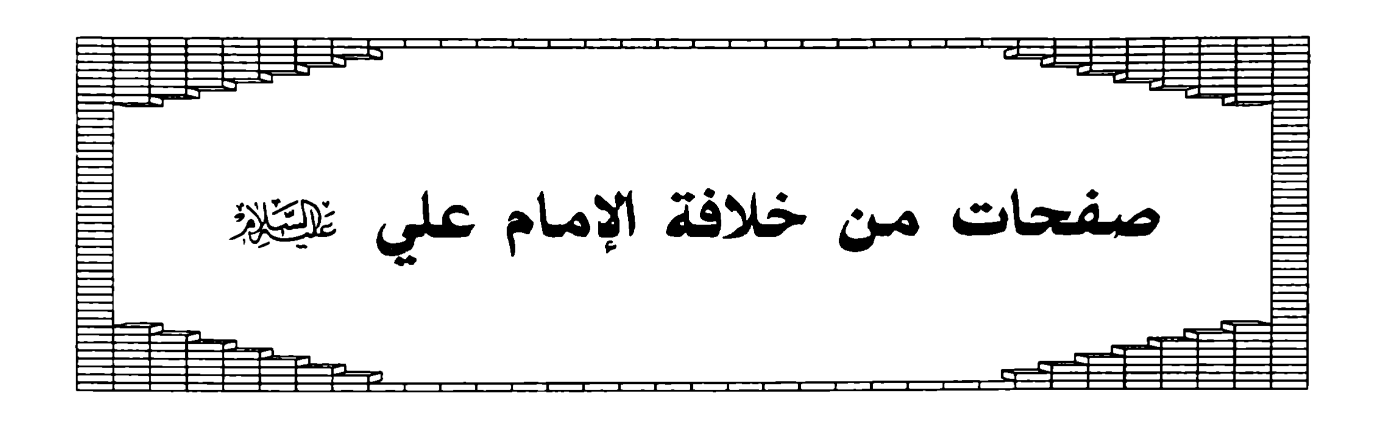
هذا عن الطبقات والفئات الاجتماعية التي أبصر فكر الإمام علي الاجتماعي انقسام المجتمع إليها، ودور كل منها في الحياة العامة، وموقفه هو شخصياً وتقديره لكل طبقة من هذه الطبقات. . ولقد رأينا كيف انحاز فكره وموقفه إلى «العامة» ضد «الخاصة»، لأن العامة هم «عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء» بينما «الخاصة» «**أثقل مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاد، وأكره للأنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر. .؟! . .**».

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٦.

كله، وكثير مثله، يضع يدنا ويفتح عقولنا على صفحة مشرقة من صفحات تراثنا الفكري تتمثل في الفكر الاجتماعي الثوري والمتقدم لعلي بن أبي طالب، وهي صفحة تبعث فينا الفخر والاعتزاز، وتستحق منا التأمل والدرس والاعتبار.





صفحات من خلافة الإمام علي عليه السلام

بقلم: العلاّمة المؤرّخ عبد الله العلايلي

من الإنصاف والخير أن نذكر أن الجمهور الذي ثار على سوء الحكم في عهد عثمان لم يكن أرعن في ثورته، فقد اتصل بأولياء الأمور والسلطة وطالب بواسطة ممثليه مراراً وتكراراً، ولكن مطالبيه في كل مرة كانت تبوء بالفشل وكانت فشلًا ذريعاً متواصلًا ومن النوع المثير، فلا بدع أن هب الشعب هبته الغضبى وتركزت الثورة الانتقامية في رأسه تركز الفكرة الثابتة لا تحول عنها في كثير أو قليل.

هبطت وفود الأمصار المدينة مرة وأخرى إلى مرات كثيرة، وكانت في كل مناسبة تحمل طائفة من أمانيها وهي ملأى بالرجاء تود لو صدقت أحلام آمالها، وكانت ترجع في كل مرة بوعود معسولة ولكن لا تلبث أن تستحيل إلى صدى يأس فيه غرور السراب.

ساءها في كل تجربة وكل محاولة إخفاق المنقلب، فأغيظت كذي النفس الجريحة على من لا يفتأ ينكأ جراحه ويجري دماءه، ولم يسعها كظم عواطفها الملتهبة فهدرت صاخبة محتجة تريد وضع حد لآلامها وبأساتها المستعرة، فكانت تصطدم مراراً وتكراراً بما يوقظ فيها شعور الخيبة المنتقم. لذلك لم تكن الجماعات ترى في أي مكان إلَّا ملتئمة على بعضها تتهامس في أمر خطير.

وفي هذه الملتهبة كان أبو ذر الغفاري ينتقد ولا يبالي على أي وجه فسر عليه انتقاده، ويتحدى المجتمع والدولة وكل أسرة الحكم تحدياً جارحاً بمنطق الدستور الانطلاقيين المتجاوزين مذاهب سلوكهم.

رأى ولمس مقدار تهاوي الناس في الترف بالعدوى وتهافتهم على الرفاه من أي طريق، وتستتبع خطة هذا السلوك إباحية ولا مبالاة، فجعل من نفسه واتباعه حاجزاً يقاوم التيار، فوقف في كل مكان يبشر بمبادئه وبعبارة أصح يقرع سمع الناس بما قد عاهد عليه النبي وبما قد سمعه منه ووعاه بين يديه، ولكن بعضاً من الناس كانوا قد استناموا إلى هذا الجديد

وتذوقوه ولذتهم أشياؤه، فأبوا عليه وأبى عليهم فانطلق لا يبالي غضباً ولا رضى.

وكان أبو ذر يرى أن فكرة الحياة الإنسانية هي الفضيلة والإنسان هو الفاضل فقط. إذن فعلى الناس أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يوفروا كل جهودهم على تحقيقها وانتهاج سننها وأساليبها وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جدهم وهمهم على التزيد من متارف الحياة الناعمة وأسباب العيش الرفيه، فإنهم لا يفضلون في اعتباره عن سائمات وجدت سبيل حظوظها. والإنسان عنده إذا جمع همه هذا الجمع فإنه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحيل بما فيه من الفكر، وأما الإنسانية فإنه عنصر غريب عنه. ولكي يكون إنساناً كذلك لا بدَّ له من حياة أخرى مادتها الفضيلة، والفضيلة، في نظره هي التجرد والعمل.

هو يريدنا أن نعمل ونكافح ما استطعنا إلى ذلك، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا ننغمس في مدى الفتوة، يريد منَّا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات، واستعلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشد السمو.

وليس أضرَّ على الكائن الإنساني من أن يسير بالحياة فقط، إذ بهذا يشبه سير الرحى تتحرك وهي قابعة بمحلها. وفرق ما بين الإنسان والحيوان إن الثاني تسير به الحياة والأول يسير بالحياة ويستعلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها. وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة، والفضيلة التي هي التجرّد ضرورية للإنسانية، فلكي نكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل ويجب أن نتجرد، وأما إذا عملنا فقط فقد نحرنا عنصر الإنسانية فينا واسففنا، كما تتعقد الحياة حين نضعها في معترك أطماعنا وشباك شهواتنا. فكان يوصي ويلح أن نعمل وأن نتجرد أي نعمل ولا ندخر، فحض فأقسى أسلوب وأعنفه على عدم الكنز ولوح ما شاءت له فكرته وشاءت ضميره بقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1].

وهو يرى أيضاً أن الدولة كالفرد سواء بسواء، فإذا كنزت ولم تتجرد انحطَّت وتولدت لديها الأطماع فتحدى الدولة كما

(١) التوبة، الآية: ٣٤.

تحدى الأفراد وحارب الكنز الإجماعي كما حارب الكنز الفردي. وشنَّها شعواء على دنيا القصور وحياة الترف، فقد نظر إليها نظره إلى مأتم للمثالية العليا والأحلام السامية، فموكب الإنسانهية لا بدَّ أن يتوقف ويتوحل، وينقلب موكب رجم إذا شئنا الولوج به في دنيا الشهوات.

ومن ناحية أخرى أحسَّ بالآم البؤس في الناس، وأحسَّ بأن الدولة تتوسل بالتسميات القانونية إلى انتهاب المسميات الحقوقية من أربابها والاستحواذ على الثروة الاجتماعية وتبديدها دون مستحقيها، فقدر واستنتج أن الحكومة المنتخبة هي ذات الحق الأول في التصرف بالأموال الشائعة. إذن فتسميتها مال الخزينة بمال الله التي يراد منها الشيوع، وسيلة للتلاعب والاستحواذ فحمل حملة نكراء على هذه التسمية المغلوطة ونادى بأنها مال المسلمين، هذه التسمية التي تؤدي في تسلسلها المنطقي الحقوقي إلى منع حرية التصرف، وإلى وجوب توزيعها عليهم وتعلق حقوقهم بها.

وبلغ من شدة وطأة هذه الدعوة أن جعل الأنانيون الطامعون يفرون من طريقه كلما رأوه، وزاد في تأثير دعوته

وانتشارها أنه كان يشفع أقواله هذه بأحاديث مأثورة سمعها من النبي.

وكانت في الكوفة حركة أقوى من سائر الحركات الأخرى في المدن والعواصم، وهناك وضعت «عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تقابل من الهيئة الحاكمة بالحسنى بل بالإعراض، فتألبوا وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية «بالقبض عليهم» وبعد ذلك أفرج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، بيد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها. ومهما احتبكت ألوانها الكالحة. . وكانت عريضة الحق تشتمل على:

(أ) إبعاد البطانة المشرفة على تسيير الأمور حالياً ولا سيما مروان بن الحكم.

(ب) الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.

(ج) ضرب اليد على طماعية قريش.

(د) الحد من صلاحية الولاة والأمراء فيقيد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

(هـ) الحيلولة دون الأمراء واستذلال الأهلين.

وفدت الوفود تحت ستار الحج وهي تخفي أغراضها الدامية الثورية وشاع الهمس في المدينة وانطلقت عبارات الانتقاد تؤج كالنار في الهشيم، وقد اتصلت بعلي أخبارهم فتخوف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بعثمان فقال له:

«الناس ورائي وقد كلموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتلعم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله. وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك.. ثم يقول:

فالله في نفسك. فإنك والله ما تبصر من عمى، وما تعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بيّن...».

وظلَّ عثمان يعلل بمختلف الأعذار ولا يستقر على رأي. وكان أحياناً يذعن لنصائح علي ويعزم على إصلاح الأمور. ومما قاله له علي: «**إن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية**».

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي، ويضرب له المثل بشدته عليه فيقول:

«هكذا يستقبل وأنت أمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته، فما ظنك بما غاب عنك منه؟». وكذلك يقول سعيد بن العاص وسائر بطانته: «حتى أجمع ألا يقوم دونه» وعلي حيال تردد عثمان لم يسعه إلَّا أن يقول:

«**ما يريد عثمان أن ينصحه أحد، اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلاَّ وقد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها**».

وكان عمرو بن العاص في هذه الأثناء يحرض الناس على عثمان ويجبه سياسته علانية ويتجسس عليه ويفضح الأحاديث

التي تجري داخل داره، ولا يلقى أحداً إلَّا أدخل في روعه كراهيته ويستغل المناسبات والظروف حتى قال يصف نفسه:

«أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها، إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان». . وهذا عثمان يستشيره في جماعة من صحبه فيقول له عمرو:

«أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض فيه قدماً». . ويقابله حينما خطب عثمان على ملأ من الصاخبين المتمردين بقوله:

«يا أمير المؤمنين: إنك قد ركبت نهابير وركبناها معك، فتب نتب». . وهذه عائشة تجترىء وهو يخطب فتقول وقد نشرتْ قميص النبي:

«هذا قميص النبي لم يبل، وقد أبليت سنته». . وهذان طلحة والزبير يعينان الثائرين بالمال.

والجموع المتألبة الوافدة من كل مكان، حيال ما ترى وحيال ما تحس به من آلام في قراراتها، تفتحت ثائرتها

ومضت في اندفاعاتها متنمرة غاضبة. فبذل علي كل جهد لتخفيف ثائرتهم وتبريد غلوائهم، وحمل عثمان على إعطائهم مهلة ثلاثة أيام. فلما انتهت اجتمعوا على بابه «مثل الجبال» على حد تعبير المؤرخين، قال عثمان لمروان: «اخرج وكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم» فخرج مروان إلى الباب «والناس يركب بعضهم بعضاً» فقال:

«ما شأنكم قد اجتمعتم كأنما جئتم لنهب؟.. شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه؟... جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ أُخرجوا عنَّا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم.. ارجعوا إلى منازلكم والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا».

كانت هذه الخطبة المملوءة حمقاً ورعونة، شرارة شديدة الأثر في إذكاء الثورة وتقريب خطواتها. ومروان لم يفلح فيها بإثارة الناس فقط، بل أفلح أيضاً بإثارة علي نفسه الذي ضمن للجمهور تسوية الأمور على ما يرغب، وقد أسقط في يده حقاً وما وسعه تحت عاصفة نفسه وعاصفة الجمهور المائج إلَّا أن يقول مقالته المشهور لعثمان:

«ما رضيت من مروان ولا رضي منك، إلاَّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به. والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه. وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبتَ شرفك وغلبت على أمرك».

ودخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفراقصة فقالت:

«أتكلم أو أسكت».. فقال: تكلمي.. فقالت:

«قد سمعت قول علي وإنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء»..

قال: فما أصنع؟

قالت: «تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك. ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكان مروان منك، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له منك قرابة وهو لا يعصى». فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه وقال: «قد أعلمته أنني لست بعائد».

كبر على علي مثل ذلك المنطق الذي فاجأ به الجموع، مروان بلسان الخليفة، وهو يعلم أنه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصيبة وبين التلظي والتهاب الوضع القائم، إلَّا كلمة رعناء كالتي فاه بها مروان. على أنها هدمت قيمة وساطته وألقت في روع الناس ارتياباً حقيقياً حادِاً في جدوى مداخلته، لهذا - وهو في مقياس كل عصر مبرر - تنحى واعتزل واعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. . ولكن علياً مع كل ما هو عاتب وواجد، لم يزل يقدر ويذهب في مدى تقديره بعيداً فينتهي إلى الكارثة ويتراءى له شبحها، فيرهب هوتها ويخشى وقوعها. إذن يجب أن لا يظل بعيداً وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور هذا الموقف النابي المثير، فبادر إلى تقديم ولديه - ولاعتباراتهما التقديرية - كي ينهنهوا عوادي الأحداث وطائشات الخطوب. . وحين بلغه «أن الناس حصروا دار عثمان ومنعوه الماء بعث إليه بثلاث قرب، وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على بابه ولا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه، وكان أن خضب الحسن بالدماء وشجَّ قنبر مولاه».

وبات علي مطمئناً فقد رتب الأمور جيداً، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذ الشكل: يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور إلى إجابة مطالب الإصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مروان، ولوجود ابنيه اطمأن من عدم دنو الخطب منه. فإن وجودهم يعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه، فلا يتصل به مكروه دام يضع حداً لحياته، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العابثة.

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء الصراع، بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان وهو محاصر كتب إلى معاوية وهو بالشام:

«إن أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إليَّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول» فإذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربص به ولا يجيبه.

ومن تهكمات القدر أن يحرِّض عمرو بن العاص على قتل عثمان، وتجبهه عائشة علانية، ويتخلى معاوية عن نجدته، ويعين عليه طلحة والزبير كلاهما. ثم ينفر هؤلاء أنفسهم هنا

وهناك، يطالبون بدمه علي بن أبي طالب الذي أخلص له النصيحة وحذَّره من هذا المصير، وكان مجنه دون رواكض الخطوب.

بعد تولي الخلافة

أصبح علي الخليفة واجتمعت في يديه مقاليد الأمور، فثاب إلى المجتمع هدوء مشفوعاً بالأمل وارتقاب فجر جديد.

وبدأ علي أول ما بدأ بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكلهم المعلقة أضحت مزمنة لم يبت فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور وواساه بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

وذهب مع تقريره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير مكتوب، يظل عرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تضيره، إذا لم يقصد أولًا وقبل كل شيء إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم إلى

الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي علي أن الإصلاح حتى في المجتمعات التي يستوي النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يتم على وجه مضمون إلَّا بالشخصية المنتقاة. ولمس إلى ذلك أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزائها هو الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبدر قدماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأمصار الكبرى، فلما أظهرا على أن التعيينات الجديدة لم يصبهما منها نصيب، امتعضا أي امتعاض ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً ما يمكنهما من القيام بحملة ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجد في الناس من يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين باشروا الاغتيالات بالنفس.

وعلي لم يؤخرهما من حيث أنهما ليسا بالجديرين، بل لأن الظرف لم يزل يعج بالحزبية ولم يزل متشبعاً بروحها. فإذا بعث بهما إلى الأقاليم التي تناصرهما كالكوفة بالنظر إلى الزبير والبصرة بالنظر إلى طلحة، فقد سهل لهما حرية التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة الحزبية. وحرية

التصرف هي التي بات يشكو الناس منها كما كان الحال بمعاوية في الشام على عهد عثمان، على أن الأمير يصبح بهذه الحزبية المناصرة قليل الاهتمام بأوامر السلطة العليا، مما تتخذ به الأقاليم في كل مكان شكل إقطاعيات لا تتصل بالمرجع الأعلى الإيجابي إلَّا اتصالًا اسمياً. وإذا تأزمت العلاقة بين الرئاسة العليا والأمير، استطاع الانفراد بإقليمه وقطع العلاقة التي لم تكن تعبر عن اتصال إيجابي. وهذا خطر يهدد الدولة وداء وبيل في جسم الحكم، خصوصاً إذا تواطأت طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتفاق المصالح الموجبة، فإنه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي. كما تظل هذه السمة الإسمية للإقليم الإقطاعي ينبوع ضرر للرئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدر له ولا يرهب مرجعه فيعبث كيف شاء، ويكون المسؤول عن تصرفه هو الرئيس الأعلى في نظر الشعب فيتهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه، رغم أنه في الواقع لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً، مثلما كان الحال في زمن عثمان فقد أصبح اتصال الأقاليم بمركز الخلافة اسمياً، والأمير إقطاعي يتصرف

كيف حلا له لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإنما يستخدم ذلك الطابع «هذا أمر الخليفة» ستاراً فقط كما كان يفعل معاوية في الشام.

وإذا بعث بهما علي إلى الأقاليم الأخرى وليس لهما فيها أنصار وأشياع بل على العكس أعداء حزبيون، فقد أعاد الوضع إلى القلق ودفع الجمهور إلى التمرد بالشكوى المصطنعة. لذلك عمد إلى مداواة الحالة العامة وخنق الحزبية وعنعناتها وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولًا.. فبين يديه مجتمع مريض وهو يتطلب شخصيات جديدة لم تنخرط في الحقل العام والحياة السياسية الصاخبة المتناحرة، حتى إذا تمَّ له ما يريد عاد ففكر فيهما وفي سواهما. ولكنهما فسرا إغفالهما بالعداء، فانصرفا إلى إيجاد الوسائل القمينة بالضغط فوجها وجههما شطر مكة. وبينا هما في الطريق لقيا عائشة وهي عائدة من مكة، فرويا لها ما كان من أمر الثائرين وعثمان، وما كان من أمرهم وعلي، وكاشفاها بما عزما عليه. وصادف هذا رغبة في ضميرها وهوى كامناً، فحملاها على الرجوع وسهّلا لها الخوض في معمعة سياسية طاحنة،

اتصلت حتى انقلبت دموية حادة.

ولما هبطوا مكة وجدوا فيها فلول الأمويين، ففكروا جميعاً باستغلال الموقف وترتيبه على هذا الشكل:

يعصي بالشام معاوية وهم يعصون بالعراق حتى إذا استقام لهم الأمر واستقروا، حاصروا الحجاز وانتزعوا مقدرات السلطة العليا بمطالبهم.

أدرك علي كل ما دار بخلدهم وما عزموا عليه، وأدرك فوق ذلك أن الخطب سيعدو دائرته الضيقة، لنزول عائشة إلى الميدان بما تبعثه من خامدات النفوس وفي المحيط العربي خصوصاً. أليست امرأة وامرأة لها قيمتها ومنزلتها الروحية الفريدة؟ فهي زوج النبي وابنة الخليفة الأول. ومن ناحية ثانية أليس الموضوع نفسه حساساً مثيراً؟ أليس كل الثائرين الذين تم الحادث على أيديهم في صفوف علي؟ أليست نفسية الجموع شديدة الحساسية بفضاعة الدم المطلول وضغينة المحاكمة والموازنة؟ أليس الظرف متبلبلًا يميد بالفوضى؟ إذن ففي الأمر عقدة خطيرة ولا بدَّ أن يستغلها هؤلاء الواجدون.

فكَّر وقدَّر وقلَّب وجوه الرأي حتى انتهى إلى أن الحالة الناشبة البادية ستستحيل إلى فوضى فظيعة قد تندك معها معالم المجتمع الإسلامي، وانتهى أيضاً إلى أن صفة التبلبل وهي تساعد على الدس والانتهاز لا يحسمها إلَّا عمل سريع عنيف. وفكر كثيراً قبل أن ابتدأ بطلحة والزبير ومن ورائهما عائشة، فقد لمس خطر هؤلاء الذين يملكون من أسباب السيطرة والتأثير الروحي قدراً كبيراً.

ومن ناحية ثانية فقد استجلى طبيعة البصرة على ضوء الروحية التي كانت بارزة في العراق إذا ذاك، فوضع يده على مكان التفكك والتفسخ وعدم الانسجام والتماسك، بينما الشام كانت على العكس متماسكمة بوحدة الدم والتغرير. إذن فالبصرة أقل عناء وأكثر خطراً وأبعد نفوذاً بما يملك اللاجئون إليها من صدى بعيد، عميق التجاوب في النفسية العربية العامة. فكان لزاماً أن ينبعث من فوره إليهم ويتخذ البصرة هدف ضربته الأولى الخاطفة الساحقة، فيرهب بها المتمردين في كل مكان ومجال.

وأقام خطته على حرب السرعة ليكون نجاحها مضموناً،

فيعيد الثقة المفقودة، بعد الثورة، إلى العاصمة، كما استعان بالنقد والدعاية كأداة حربية فظيعة الفتك، وأدرك ضرورة هذا العنصر في الحرب فهبت أم سلمة زوج النبي وهي من أعوانه إلى انتقاد عائشة على شكل حاد، فيما أقدمت عليه من مغامرة فكتبت إليها، ومن جهة ثانية أذيع الكتاب وهو:

«من أم سلمة زوج النبي، إلى عائشة أم المؤمنين. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فقد هتكت سدة بين رسول الله وأمته. جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها، وسكر خفارتك فلا تبتذليها، فالله من وراء هذه الأمة.. لو علم رسول الله أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة في الدين. فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع. جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول، وقصر الموادة. ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات، ناصة قعوداً من منهل إلى منهل، وغداً تردين إلى رسول الله، وأقسم لو قيل لي: يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله هاتكة حجاباً ضربه علي..

فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم. ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله لنهشت نهش الرقشاء المطرقة. والسلام».

وكان لهذه الدعاية الحربية أثرها الكبير، فأم سلمة أم المؤمنين أيضاً وهي تشجب على عائشة حركتها وتنتقدها انتقاداً لاذعاً. وقد تركت أثرها المرغوب به والمتوخى نيله وكان أبرز ما تركت أثران بارزان:

١ - إعطاء صورة نابية عن محاولة النساء مثل هذه المحاولة، فقد رووا «أن أبي عتيق - وعائشة عمته - لقيها في بعض مآتي الطريق راكبة على بغلة فقال لها:

إلى أين يا أماه؟

قالت: أصلح بين حيين من أحياء المسلمين تقاتلا.

قال: عزمت عليك إلا رجعت، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نعود إلى يوم البغلة».

٢ - شجع الزعماء والأمراء على أن ينكروا عليها، فقد

كتب إليها زيد بن صوحان رداً على كتابها إليه:

«سلام عليك أما بعد: فإنك أمرت بأمر وأمرنا بغيره، أمرت أن تقري في بيتك وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة: فتركت ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به والسلام».

فمضى الخطباء يحصون عليها تبلبلها وتناقضها، فبعد أن كانت تثير الناس على عثمان وكذلك طلحة والزبير، إذا بهم يخرجون جميعاً مدعين الطلب بثأره في أحرج الساعات العصيبة، وبذلك يسهلون سبيل العمل للانتهازيين النفعيين.

فحرب الدعاية التي اصطنعها علي وقذف بها خصومه، أثَّرت أثرها الكبير وفككت الوحدة في المعسكر الآخر. «فاعتزل بالجلحاء - من البصرة على فرسخين - الأحنف بن قيس، واعتزل معه زهاء ستة آلاف من بني تميم».

وعلى هذا الوضع فاجأهم علي بجنده وفيه ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان، وكانت راية علي مع ابنه محمد بن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة

محمد بن أبي بكر وعلى المقدمة عبد الله بن عباس. وزحف علي نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ونادى بعقر الجمل فوقعت الهزيمة.

كانت معركة الجمل بدون ريب أو كادت تكون، هي المعركة الفاصلة، وأن تنقلب من حيث القيمة ثانوية وأن تعتبر حركة فرعية لتطهير بعض عناصر الشغب الباقية، خصوصاً والمقاومة الكفاحية آخذة بهذا الشكل من السرعة والدعاية الموفقة التي أشعرت الناس كافة بالاشمئزاز من شغب المشاغبين. بيد أن الحال تبدلت وجعلت لصفين الصفة الحاسمة الرئيسية لاعتبارات:

١ - استحالة فكرة العقيدة وروحيتها الأخلاقية عند علي إلى فكرة ثابتة، والفكرة من الثوابت تصرف كل قوى المرء الروحية والمعنوية إليها، وتقف جهوده العملية في سبيلها ومدى غايتها فقد تركزت تركز الأعصاب، فصاحبها لا يفكر ولا يرى ولا يحس أو لا يحب أن يفكر وأن يرى وأن يحس إلَّا في مواقع ميولها، كما لا يدبر ويقدر إلَّا على ضوئها. لذلك لم تكن سياسة علي مشتقة من صميم الحياة كما هي

بمساوئها، بل من روح الحياة كما ينبغي أن تكون بفضائلها. فهذا الرجل الذي عرفناه دموياً في قضية الانتصار للعقيدة، نراه شديد الكراهية لسياسة الدماء وأساليبها في قضية قمع حركات المتمردين، فهو يفرق جيداً بين الكفر والعصيان. ولكن وسطه لم يكن يفهم هذا الفرق فهماً حسناً ولا يفرق بينهما أبداً، فقد رأينا عثمان الخليفة يسمي تمرد أهل المدينة كفراً في كتابه إلى معاوية، ونرى كثيراً من الناس ينظرون إلى خصومهم نظرة الكافرين وبالتالي يجب أن يطبقوا عليهم أحكام الكفار وقانون الارتداد.

كان الجمهور متشبعاً بهذه الفكرة وما يترتب عليها ويلابسها، فإذا بعلي المتشرع العبقري والمسلم الواعي لحقيقة الإسلام يحمل على أساس هذه الفكرة لئلّا يتورط الناس في استباحة مقتضياتها القانونية، التي تخولها حالة الحرب في الأسرة والمال والملك والقيمة الشخصية، التي يتبع فقدها الأسر والاسترقاق وبين للناس بمنطقه العميق أن هناك صفة ثالثة هي الفسق وهو لا يبعد بالمرء أبداً عن دائرة الإيمان، كما لا تترتب عليه الاستباحة بل التأديب فقط.

وانظر كيف يستأتي إلى إقناعهم بخطأ فكرتهم حين قالوا: «أحل لنا دماءهم وحرِّم علينا أموالهم».

فقال علي: **«هي السنة في أهل القبلة»**.

قالوا: ما ندري ما هذا؟

قال: **«فهذه عائشة رأس القوم اتقسمونها فيما تقسمون من الأسرى؟»**.

قالوا: سبحان الله أمنا.

قال: **«فهي حرام؟»**.

قالوا: نعم.

قال: **«فإنه يحرم من أبنائها ما حرم منها»** ثم نادى في الناس: **«لا يسلبن قتيل ولا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا يحل متاع»**. ولكن الجمهرة الكبرى ساذجة بسيطة في فكرة التدين، فوقع عليهم هذا النداء وقع اليأس في محل الأمل، وجعلهم يلغطون كثيراً ويتأففون كثيراً وحملهم على تفكير طويل فيما هو الفرق بين الكفر والعصيان، وفيما هو الفرق بينهما وبين الإيمان.

فأما أولئك البداة الأعراب الذين لم يفهموا الدين إلا على شكل سطحي، استعصى على تفكيرهم فهم الفروق الدقيقة بينهما فمضوا على أنه لا فرق واقتنعوا بما انتهوا إليه. واشتملوا على نوع من التسخط الخفي كان غير مشعور به إلَّا قليلًا، لأنهم بمقتضى نظريتهم حال الخليفة بينهم وبين حقهم في الغنم ومنعهم إياه. ومن هؤلاء كانت نواة الخوارج، وقد صاغوا فكرتهم هذه فيما بعد بأن مرتكب الكبيرة كافر.

وأولئك الذين صحبوا النبي طويلًا وعرفوا كثيراً من منطق الإسلام اشتملوا على اطمئنان كبير حينما أوضح لهم علي الفرق كما لو لمسوه.

٢ - نظريته في خصومه أنهم مسلمون فلا يجوز أخذهم في غير حدود الإسلام وقانونه وذلك حين سأل الناس عن الخوارج «أمشركون هم؟».

قال: **«من الشرك فروا»**. . قيل: فمنافقون هم؟

قال: **«إن المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً»**. قيل: فما هم؟

قال: «**إخواننا بغوا علينا..**» وكان لا يفتأ يقول: «**لا تقولوا كفر أهل الشام ولكن قولوا: فسقوا وظلموا**».

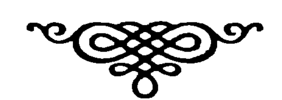
إذن فلا بدَّ أن يفاوضهم ولا بد من أن يلاينهم ما وسعه ذلك ووجد فيه أملًا، دون لجوء إلى العنف الذي لا يستحله إلَّا بعد أن يعنتوه.

فنراه يفاوض معاوية ويرسل إليه الرسول بعد الرسول والكتاب تلو الكتاب، ويذكره بموقف أبيه منه، وإذا به يتهمه بالعقوق في رفق. قال في بعض كتبه إليه:

«**وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله، فقال: أبسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر. فأبوك كان أعلم بحقي منك، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك وإلاَّ فنستعين الله عليك**».

ولكن معاوية كان قد ساوره الطمع ولعبت أحلامه الكبرى أمام ناظريه، ولم يكن شيء من هذا خافياً على علي، بل كان

ينظر ويبتسم فهو يريد أن يحل المشكلة القائمة ولكن على طريقته المثالية وبمنطق القانون الذي يقدسه. وعلي وإن لمس أن الظرف يتأزم عليه والوقت يتعقد، فإنه يريد أن يحارب حرب الحق وينتصر للعدالة بالعدل وإلَّا فهو في نظره يخدع ضميره ويخدع الناس، إذا سمح لنفسه بانتهاك قداسة الحق بسبيل تأييد قضايا الحق.





علي والزمان

بقلم: الأديب الأستاذ جورج جرداق

تاريخٌ هو الليلُ والويلُ والهول الأكبر.

لا قويٌّ فيه - بمقياس قوة البهيمة - إلا وهوَ آمرٌ مطاعٌ ينكّلُ ويقتل ويغزو ويسطو ويضربُ الخلقَ بالترويع.

ولا لصٌّ فيه إلّا وهمَّتُه أن يأكلَ الناسَ معَ الآكلين.

ولا سفّاحٌ إلّا ورقابُ الأبرياءِ والمستضعفينَ محصدةٌ لسيفه.

ولا جاهلٌ إلّا وقصرُه من جماجم المفكّرين.

ولا شرّيرٌ إلّا ويمشي في الأرضِ مرحاً، وهو يحسَبُ أنه يخرِقُ الأرضَ ويبلغُ الجبالَ طولًا.

ولا جروٌ من جراءِ هؤلاءِ إلّا وله رأيٌ وصوتٌ ويدٌ في

تحديد مدة الحياة للأحياء.

ذلك هو الفصلُ الأطولُ والأشملُ في مسيرةِ البشر عبرَ ألوف السنين.

وشُوهدتْ في دياجير التاريخ منارات تعلو وتُضيء.

وسُمعتْ في فضاءِ التاريخ أصواتٌ تخلّعتْ لها أبدانُ الطغاةِ الأغبياءِ، ومالت بها الدنيا عليهم تقول: إنّ للإنسان قيمةٌ غيرَ التي تعرفون، وإن للجماعة صورةً غير التي تصنعون.

في طليعة تلك المناراتِ الواقفةِ على مفارقِ الأزمنة والتي لولاها لما استحقّت الحياةُ أن تُحيا، كان عليٌّ بن أبي طالب، وكانت على يده ثورةٌ مستمرّةٌ مع الزمان على أنظمةٍ آخذةٍ من كلِّ بغي وعدوان. ثورةٌ كانت ولا تزالُ برداً على المستضعفين وسلاماً ونعمةً موفورة.

ودخلت الإنسانية بظهور عليٍّ ونهجه مرحلةً نيّرة خيّرة. وعرف التاريخ بعليٍّ الصيغةَ الكونية المُثلى للعقل العربي المبدع، وللخلقِ العظيم، والضميرِ العملاق، كما عرف نهجاً

للعدالةِ الاجتماعيةِ المنبثقةِ مفاهيمُها من احترام الحياة والرحمة بالأحياءِ، والاستلهام قوةِ الكونِ المركزيةِ العظمى التي هي الله. وحين تجري مفاهَيمُ العدالةِ الاجتماعيةِ من هذه الينابيع الصافية، تُصبحُ الصورةُ الظاهرة للعدالةِ الإنسانية التي تشمُلُ الظاهرَ والباطنَ جميعاً.

ولا يستقي مفاهيمَ العدالة من مناهلِها الكونية إلّا عبقريُّ العقلِ والقلبِ والروح الذي ينظرُ إلى الفردِ وكأنه ينظرُ إلى الناسِ جميعاً. وينظرُ إلى مجتمعهِ وكأنه ينظرُ إلى كلِّ مجتمع. وينظرُ إلى زمانه ليرى فيه كلَّ زمان. فالإنسان في جوهرِهِ هو الإنسان حيث كان من الزمان والمكان. وحاجاتهُ وأشواقهُ هي هي في الجوهر مهما اختلفت المواقعُ وتعاقبتِ العصور. وما المواقعُ المكانيةُ الزمانية بالنسبة لعبقريّ العقلِ والقلبِ والروحِ إلّا مناخاتٌ خارجية يخترقُها كلَّها بعقليةٍ كاشفةٍ واحدةٍ ونهجٍ واحد، فلا تتبدّلُ فيها نظرتهُ إلى جوهرِ الأمور.

من هذا المنطلق عالج الإمامُ الأعظمُ عليُّ بن أبي طالب أمورَ الجماعةِ في مكانهِ وزمانهِ فعالجَ بها أمورَ كلِّ الجماعات في كلِّ مكانٍ وزمان.

أدرك عليٌّ، كما لم يدرك سواه، أن اللبنة الأولى في بناءِ المجتمع السليم: اللبنةَ التي إن لم تكن هي الأساس فلن يكون هنالك بناء، هي توفيرُ أساب العيشِ للجماعةِ موزّعةٌ توزيعاً عادلًا، لا غُبنَ فيه، فلا يكونُ في المجتمع حارمٌ ومحروم، وقاهرٌ ومقهور، ومتخمٌ وجائع. ومِن مبادئه التي تكشفُ عن هذا الجانبِ الأهمِّ في معنى العدالة الاجتماعية، والذي إذا فُهم وعُمِلَ به حالَ دون طغيانِ الشرورِ التي تصيبُ الجماعة وفي طليعتها الظلمُ والقهر والفسادُ والإفساد وانتظامٌ الناسِ في فئاتٍ متنافرة وطبقاتٍ متناحرة... هذه المبادىء التي نرى فيها المبدأ الأساس نفسه الذي رآه صاحبُ الثورةِ الفرنسية الكبرى وأحدُ آباءِ الإنسانية الكبار الشاعرُ الفيلسوف جان جاك روسو في القرنِ الثامنَ عَشَرَ، لتكونَ المرتَكَزَ في بناءِ المجتمع العادل، كما نرى فيها المبدأَ الأساسَ نفسَه الذي اكتشفَه فلاسفةُ الاجتماع وعلماؤه في أوروبا بأواسطِ القرنِ التاسعَ عَشَرَ عندما أعلنوا، استناداً إلى العلم لا إلى المِزاج، إنَّ كلَّ ما يصيبهُ المرءُ من أسباب النعمةِ الفائضة عن حاجته، لا يكونُ إلّا مّما اقتُطع من حاجةِ أهل العَوز وأُخذَ منهم

اغتصاباً، وهو اغتصابٌ قد تبرّرهُ القوانينُ المرعيّةُ التي صنعها الأغنياءُ لقهر الفقراء، والأقوياءُ لإذلالِ الضعفاءِ، والفئةُ القليلةُ لنهب العامة، ولتوطيد ما يسمّونه «الأمن» على هذا الأساس. . . هذا مع ملاحظة هامة هي أن الإمامَ علياً سبق هؤلاء الفلاسفة والعلماء الأصفياءَ أكثرَ من ألفِ سنة إلى إدراك هذه الحقيقة وإلى إعلانها عندما قال: «**ما مُتِّعَ غنيٌّ إلاّ بما جاع به فقير. وما رأيتُ نعمةً موفورة إلا وإلى جانِبها حقٌّ مضيَّع!**».

هذا القول العظيمُ ليس قولًا وحسب، إنه كشفٌ علميٌّ عن حقيقةٍ ثابتةٍ لم تنكشف لعلماءِ الغرب إلا في القرنين الأخيرين، عند طغيان العصر الصّناعي الذي مكّن الفئةَ القليلةَ من استغلال العامّة على صورة فاجرة.

على هذا الأساس المنطقي يرى الإمام أن يبدأَ بناءُ المجتمع العادل. وعلى أساس الرعايةِ الصادقةِ الأمينة للعدالَةِ الاجتماعية، وللجماعة، تعملُ السلطةُ في نهج الإمام هذه السلطة التي كانت ولا تزالُ في كثير من أقاليم الأرض وسيلةً للحصولِ على المال والمزيد من التشامخ والتبذّخِ، مهما ادعى عكسَ ذلك المدعون، ومهما تقنع المتقنّعون ونافق

المنافقون وأظهروا خلافَ ما يُضمرون، ومهما غطَّوا الواقع بالعبارات البرَّاقة الرقراقة السراقة، كالنظر في أحوال البلاد وخدمة العباد، ورفعِ الظلمِ عن الجماعة ومحاربةِ العوزِ والمجاعةِ، إلى آخر الأكاذيب المودَعة في عبارات جاهزة يتناولُها ويلوكُها كلُّ من شاء أن يلعبَ بلسانه ويضحك على إخوانه، ونحن نعلمُ وهم يعلمون أن شرَّ الشياطين شيطانٌ يصلي!

وصاحب السلطان في نهج الإمام هو ذاك الذي انتزع له الإمامُ صورة عن نفسِهِ هو إذ قال: «لو فُقدتْ شاةٌ في الحجازِ أو اليمامة، لشعرتُ بأنني مسؤولٌ عنها إلى يوم القيامة!».

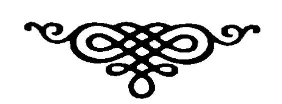
لقد كان إحساسُ عليٍّ بمسؤولية السلطان وبمعناه، إحساسَ الأنبياء وكبارِ الفلاسفةِ والشعراء الذين يَحْيَونَ مُثُلًا ساميةً وأحلاماً وأشواقاً لا يعرفُها سواهم، ومن وحي هذا الإحساس العميق تمثّل جهدَ صاحبِ السلطان الذي عليه أن يعمل كلَّ شيء لخير المجتمع، حتى إذا فعل قال له هذا القول الذي ينزعُ به عن أسمى المشاعرِ والمسالك معاً: «إذا فعلت كلَّ شيء، فكن كمن لم يفعل شيئاً»!

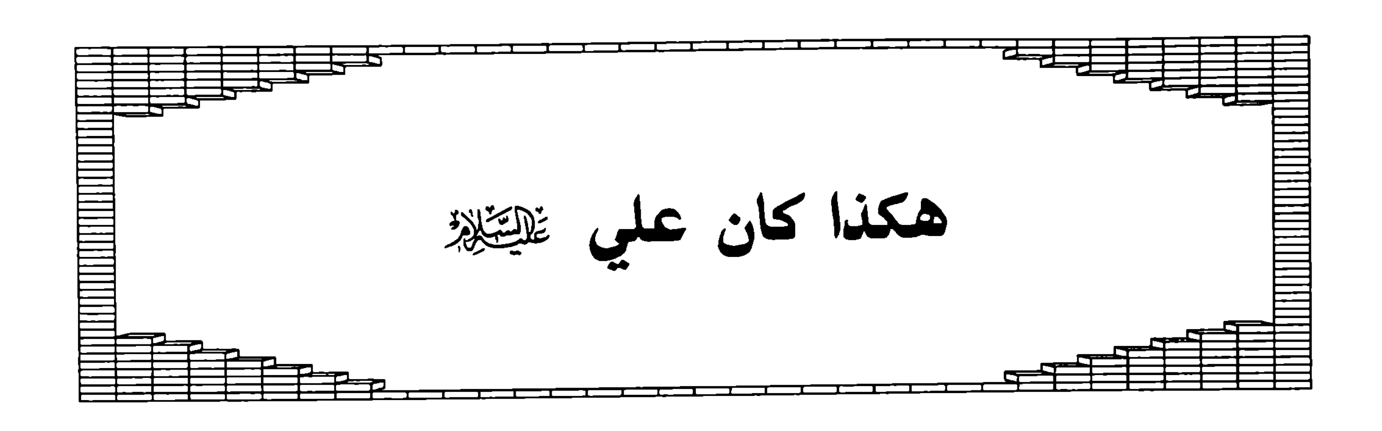
الإمامُ عليٌّ الذي نظر إليه النبيُّ الكريمُ ذات مرةٍ وقد تمثلتْ له مزاياه العظيمة فقال له في هدوء: «**يا عليٌّ، إن فيك لَشَبَهاً من عيسى ابن مريم**»!.

الإمامُ الذي اخترق بعقلهِ المبدعِ حدودَ كلِّ مكانٍ وكلِّ زمان، والذي وصفه الفيلسوف شبلَي الشميّل بقوله: «الإمامُ عليّ، عظيم العظماء، نسخةٌ مفردةٌ لم يرَ الشرقُ لها ولا الغربُ صورةً طبق الأصلِ، لا قديماً ولا حديثاً...» ليكنْ فخرَنا في غدنا كما هو فَخرُنا في ماضينا، والنظرُ إلى الماضي جزءٌ من النظر إلى المستقبل. ولنهتدِ به، ولنأخذْ من أكفارِهِ وأقوالِهِ وسيرتهِ دستوراً مستقطراً من هذه الأفكارِ وهذه الأقوالِ وهذه السيرة! ونحن في أشدِّ الحاجةِ إليه وإلى أمثاله في هذا العصر الذي يبلغُ فيه وحشُ المال كلَّ قيمةٍ في الدنيا، وكلَّ معاني الإنسان، يشتري السلطانَ والإدراةَ والقانون والأقلام والضمائر، ويقضي على العقولِ والقلوبِ والأخلاقِ والأحلام، ويمسخُ الحياةَ مسخاً مريعاً ويُلغي معانيها وكلَّ أسباب السعادة فيها! وحشُ المال الذي يخور ويجور، ويدور في ضجيج مؤجِّج، وإعلانٍ مُملج، وعلى أيدي عبّادهِ من

الأساطين والدهاقين والعرافين، حماة الحمى حماحم رب السماء تُستباحُ المقدسات الإنسانية وتنهار الحضارة! وكما أنَّ علياً المتّصل عقلُه ووِجدانُه بجوهرِ الوجودِ الإنساني ككلّ، ليس لزمانٍ أو لمكان، بل لكل زمانٍ ومكانٍ، فهو ليس لقومٍ ولا لدين، هو للناس أجمعين!

إنه المنارةُ المشرقةُ على مفارق العصور!





هكذا كان علي عليه السلام

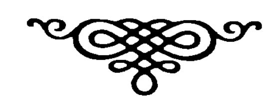
بقلم: الأديب الكبير جبران خليل جبران

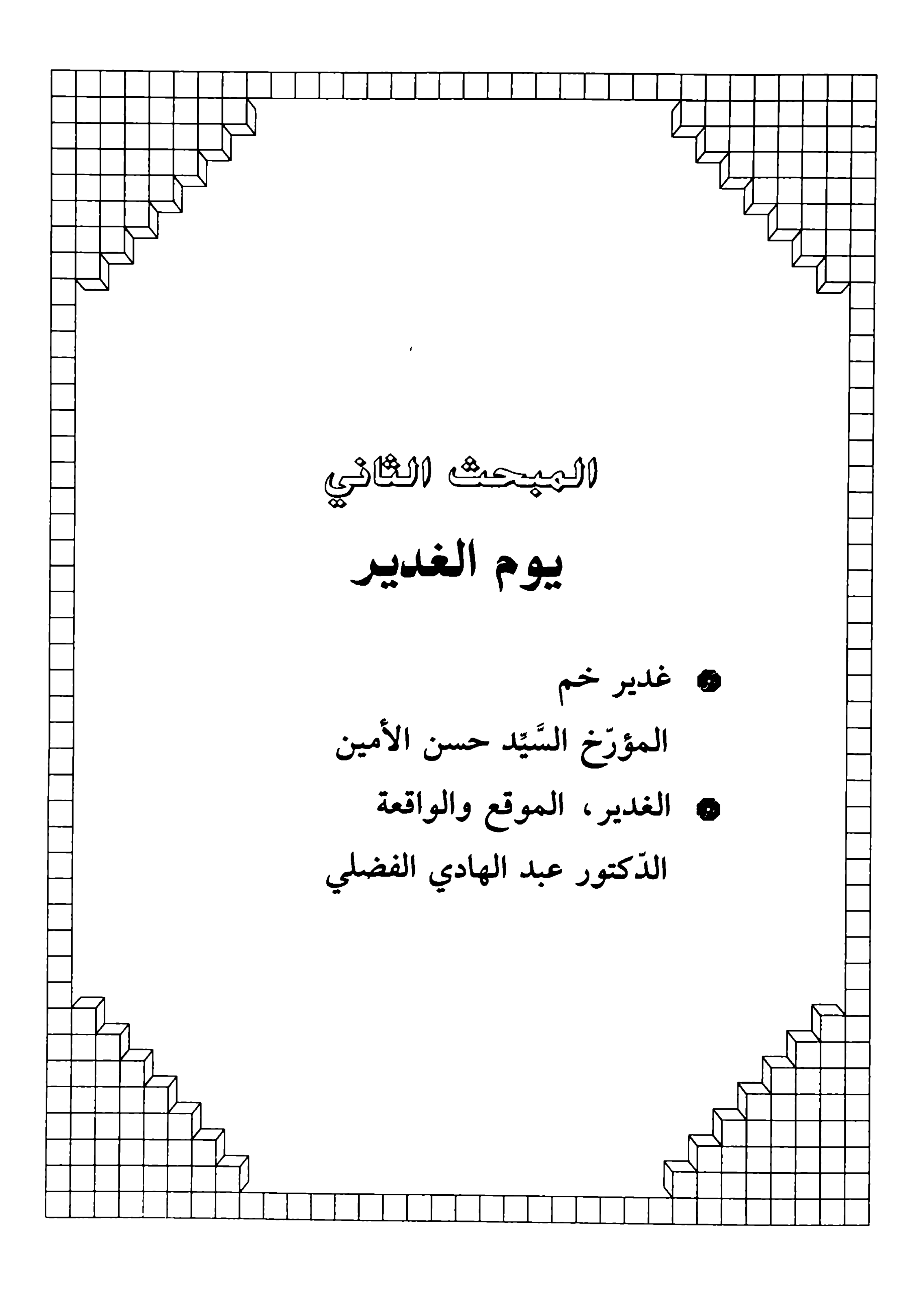
في عقيدتي أن ابن أبي طالب كان أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها، وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قوم لم يسمعوا بها من ذي قبل، فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم، فمن أعجب بها كان إعجابه موثوقاً، ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية.

مات علي بن أبي طالب شهيد عظمته، مات والصلاة بين شفتيه، مات وفي قلبه الشوق إلى ربه. ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام من جيرانهم الفرس أناس يدركون الفارق بين الجواهر والحصى.

مات قبل أن يبلغ العالم رسالته كاملة وافية، غير أنّي أتمثله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض.

مات شأن الأنبياء الباصرين الذين يَأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قوم ليس بقومهم وإلى زمن ليس بزمنهم. ولكن لربك شأناً في ذلك وهو أعلم.





المبحث الثاني

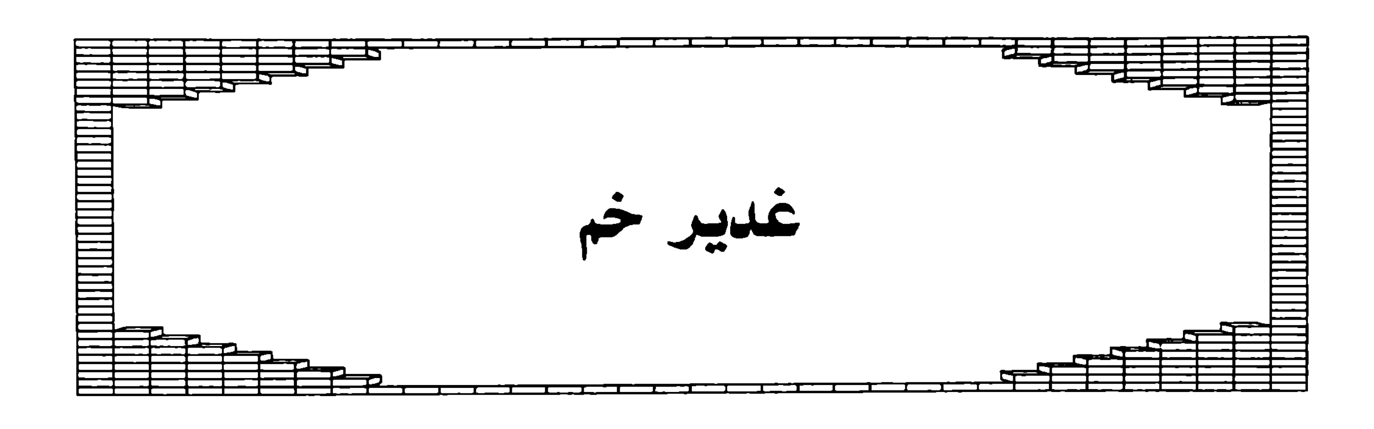
يوم الغدير

- غدير خم

المؤرّخ السَّيِّد حسن الأمين

- الغدير، الموقع والواقعة

الدّكتور عبد الهادي الفضلي



غدير خم

بقلم: المؤرخ السَّيِّد حسن الأمين

لما قضى رسول الله ﷺ مناسكه بعد حجة الوداع قفل راجعاً إلى المدينة فوصل إلى الموضع المعروف بغدير خم يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة وهو مكان قريب من الجحفة بناحية رابغ وليس هو بموضع إذ ذاك يصلح للنزول لعدم الماء فيه والمرعى فنزل به ونزل المسلمون معه. وعلم أنه إن تجاوز غدير خم انفصل عنه كثير من الناس إلى بلدانهم وبواديهم فأراد أن يجمعهم لسماع النص على علي وتأكيد الحجة عليهم فيه. فنزل بذلك المكان ونزل المسلمون وكان يوماً قائظاً شديد الحر وأمر بجمع الرحال ووضع بعضها فوق بعض ثم أمر مناديه فنادى في الناس: الصلاة جامعة فاجتمعوا إليه. فلما اجتمعوا صعد على تلك الرحال حتى صار في ذروتها ودعا علي بن أبي طالب فرقي

معه حتى قام عن يمينه ثم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ووعظ فأبلغ في الموعظة ونعى إلى الأمة نفسه وقال: «**إني قد دعيت وأوشك أن أجيب وقد حان مني خفوق من بين أظهركم وأني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا**». ثم نادى بأعلى صوته: «**ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟**».

قالوا: اللهم بلى.

فقال لهم: «**فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله**». ثم نزل وكان وقت الظهيرة وصلى ركعتين ثم أذن مؤذنه لصلاة الظهر فصلّى بهم الظهر وجلس في خيمته وأمر علياً أن يجلس في خيمة له بإزائه وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنؤوه ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك، وقد ورد ذلك في «الإرشاد» للمفيد و«أسباب النزول» للواحدي. و«مسند أحمد بن حنبل». و«المسند» للحاكم و«التلخيص» للذهبي. وتاريخ ابن كثير. والسيرة الحلبية لابن هشام. وفي غير ذلك.

وفي السيرة الحلبية لابن هاشم: لما وصل ﷺ إلى محل

بين مكة والمدينة يقال له غدير خم بقرب رابغ جمع الصحابة فخطبهم (إلى أن قال): «**يا أيها الناس**» فقال: «**إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب**» (إلى أن قال) ثم حض على التمسك بكتاب الله وأوصى بأهل بيته فقال: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا**»، وقال في حق علي لما كرر عليهم: «**ألست أولى بكم من أنفسكم؟**» ثلاثاً وهم يجيبونه بالتصديق والاعتراف ورفع يد علي وقال: «**من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره وأعن من أعانه واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار**». ثم قال: وهذا حديث صحيح ورد بأسانيد صحاح.

وقال ابن كثير الشامي في تاريخه: اعتنى بأمر هذا الحديث يعني حديث الغدير أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين وأورد فيهم طرقه وألفاظه، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١٤ ص٢٧٧ وهو يترجم للطبري: جمع طرق حديث غدير خم في أربعة أجزاء، ورأيت شطره فبهرني سعة روايته وجزمت بوقوع

ذلك، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة يعني خطبة يوم الغدير. ويقول في أعيان الشيعة: إن حديث الغدير متواتر ويكفي أن يكتب فيه مثل الطبري مجلدين.

ويقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

«ويحاول بعض المؤلفين أن يغمزوا في هذه النصوص الكثيرة بعدم صحة إسنادها، وهي محاولة نعجب لهم كيف يرتكبونها، لأنها تقضي عليهم بأن يطرحوا معظم التراث التشريعي الذي يتعلق بالأحكام الشرعية، فإن الحكم على هذا العدد العظيم من الرواة بالضعف والكذب يحتم طرح كل ما رووه، على أن هؤلاء يكتفون في غير هذه المسألة برواية واحدة فلماذا لا يقنعون فيها بهذا العدد العظيم من الروايات مع أنها مسألة تاريخية حكم الواقع فيها».

والشيعة يعتبرون أن هذا الحديث الذي يسمونه (حديث الغدير) هو نص من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على استخلاف علي عليه السلام بعده، وقد اتخذوا من يوم ١٨ ذي الحجة من كل عام يوم عيد يحتفلون بذكراه ويسمونه عيد الغدير.

وقد أكثر الشعراء من ذكر (يوم الغدير) مما حمل الشيخ عبد الحسين الأميني في هذا العصر على أن يؤلف كتاباً في عشرة مجلدات سماه (الغدير) جمع فيه كل الروايات والأقوال والأشعار التي أشارت إلى يوم الغدير.

ومن الشعر الذي قيل في هذا الموضوع ما قاله أبو تمام الطائي من قصيدة:

ويوم الغدير استوضح الحق أهله

بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر

أقام رسول الله يدعوهم بها

ليقربهم عرف وينآهم نكر

يمد بضبعيه ويعلم أنه

ولي ومولاكم فهل لكم خبر

ويقول الكميت بن زيد الأسدي من أبيات:

ويوم الدوح دوح غدير خم

أبان له الولاية لو أطيعا

ولـكـن الـرجـال تـتـابـعـوهـا
فـلـم أر مـثـلـهـا خـطـراً أضـيـعـا

ومن قبل ذلك استأذن حسان بن ثابت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أن ينشده على أثر قول النبي ما قال فأنشد حسان أبياتاً منها:

يـنـاديـهـم يـوم الـغـديـر نـبـيـهـم
بـخـم وأسـمـع بـالـنـبـي مـناديـا

حديث الغدير في
في كتب أهل السنة

يقول ابن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة): «إنّ حديث الغدير صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد، وطرقه كثيرة جداً، ومن ثم رواه ستة عشر صحابياً وفي رواية لأحمد: أنّه سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثون صحابياً وشهدوا به لعليّ لما نوزع أيام خلافته.. وكثير من أسادنيدها صحاح وحسان، ولا يلتفت لمن قدح في

صحته ولا لمن رده»[1].

أقول: وقد أخرج حديث الغدير شيخ الحديث عند أهل السنة الإمام مسلم في(صحيحه) وهذا نصه: «وعن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله يوماً فينا خطيباً بماء يدعى «خماً» بين مكة والمدينة، فحمد الله ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله.. ثم قال وأهل بيتي..»[2]. ولهذا يقول سبط إبن الجوزي: «اتفق علماء السير على أنّ قصة الغدير كانت بعد رجوع النبي ﷺ من حجة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة، جمع الصحابة وكانوا مائة وعشرين ألفاً، وقال: «**من كنْتُ مولاه فعليّ مولاه**»، الحديث، نص ﷺ على ذلك بصريح العبارة دون التلويح والإشارة، وذكر أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بإسناده، أنّ النبي ﷺ لما قال ذلك طار في الأقطار وشاع في

---

(١) ابن حجر الهيثمي: الصواعق المحرقة - ص٤٢.

(٢) صحيح مسلم: ج٧ - ص١٢٢ - ١٢٣.

البلاد والأمصار. . »[1].

وفي (الخصائص) للنسائي، وهو أحد أصحاب الصحاح الستة عن زيد بن أرقم قال: «لما رجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حجة الوداع ونزل غدير «خم» أمر بدوحات فقممن ثم قال: كأني دعيت فأجبت وإني تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض. . ثم قال: إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن: ثم أخذ بيد عليّ فقال: من كنت وليه، فهذا وليه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه»، فقلت لزيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: نعم، وإنّه ما كان في الدوحات أحد إلا ورآه بعينه وسمعه بأذنيه. . »[2].

وفي (كنز العمال) للمتقي الهندي: « . . إنّ الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن، من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. . » وقد أخرج المتقي الهندي هذا الحديث تارة عن زيد بن أرقم وهو الحديث رقم (٩٥٤)،

---

(١) سبط بن الجوزي: تذكرة الخواص، ص٣٠ - ٣١.
(٢) النسائي: الخصائص، ص٣٩ - ٤٠ - ٤١.

وأخرى عن أبي هريرة، وجابر، وأبي سعيد وابن عباس وغيرهم[1].

وفي (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، «قيل إنَّ السائل هنا هو الحارث بن النعمان الفهري، وذلك أنّه لما بلغه قول النبي ﷺ في عليّ: **«من كنت مولاه فعليّ مولاه»** ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمد أمرتنا عن الله أنْ نشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّك رسول الله فقبلناه منك، إلى قوله: ثم لم ترض بهذا حتى فضلت ابن عمك علينا، أفهذا شيء منك أم من الله؟ فقال النبي ﷺ: **«والله الذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله»** فولى الحارث وهو يقول: اللهم إنْ كان ممّا يقول محمد حقّاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقلته، فنزلت: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾[2].

(١) المتقي الهندي: كنز العمال، ج١، ص١٦٧ - ١٦٨ - ٦٦١.
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٨، ص٢٨٧ - ٢٨٩.

وفي شواهد التنزيل للحاكم النيسابوري عن أبي هريرة قال: «من صام يوم ثمانية عشر من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدير «خم» لما أخذ النبي ﷺ بيد عليّ فقال: ألست ولي المؤمنين؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن، وأنزل الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1].

ويقول الشهرستاني في (الملل والنحل): «ومثل ما جرى في كمال الإسلام وانتظام الحال حين نزل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2]، **فلما وصل غدير (خم) أمر بالدوحات فقمّمن، ونادوا: الصلاة جامعة، ثم قال ﷺ وهو على الرحال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر**

(١) الحاكم النيسابوري: شواهد التنزيل، ج١، ص١٥٨ [المائدة: ٣].
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

الحق معه حيث دار. ألا هل بلّغت؟ ثلاثاً»[1].

ويقول الغزالي: «أجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته في يوم غدير (خم) باتفاق الجميع وهو يقول: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، فقال عمر: «بخ بخ يا أبا الحسن لقد أصحبت مولاي ومولى كل مولى»، فهذا تسليم ورضى وتحكيم، ثم بعد هذا غلب الهوى لحب الرياسة، ولما مات رسول الله ﷺ قال قبل وفاته ائتوا بدواة وبياض لأزيل لكم إشكال الأمر، وأذكر لكم من المستحق لها بعدي، قال عمر: «دعوا الرجل فإنّه يهجر..» فإذن بطل تعلقكم بتأويل النصوص فعدتم إلى الإجماع، وهذا منصوص أيضاً فإنّ العباس وأولاده وعليّاً وزوجته وأولاده، وبعض الصحابة، لم يحضروا حلقة البيعة.. وخالفكم أصحاب السقيفة في متابعة الخزرجي»[2].

وفي المستدرك على الصحيحين للحاكم عن زيد بن أرقم قال: «لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٦٣.
(٢) أبو حامد الغزالي: سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص١٠.

«خم» أمر بدوحات فقمّمن، فقال كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ثم قال: «إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد عليّ فقال من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. .» يقول الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد أخرجه الحافظ الذهبي في تلخيصه على المستدرك[١].

وحديث الغدير أخرجه أهل السنة بطرق كثيرة، منهم ابن حجر العسقلاني في الإصابة[٢]. والقندوزي في ينابيع المودة[٣]، والمقريزي في خططه[٤]، والسيوطي في تاريخ الخلفاء[٥]، والمحب الطبري في الرياض النضرة[٦]، وابن

---

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٠٩.
(٢) ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج٢، ص١٥. وأيضاً: ج٤، ص٥٦٨.
(٣) القندوزي: ينابيع المودة، ج١، ص٢٨ - ٢٩.
(٤) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٩٢.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٦٩.
(٦) المحب الطبري: الرياض النضرة، ج٢، ص١٧٢.

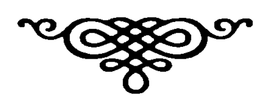
خلكان في وفيات الأعيان[١]، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد[٢]، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة[٣]، وابن تيمية[٤]، والمسعودي في مروج الذهب[٥]، وغير هؤلاء من حملة الآثار من علماء أهل السنة غيرهم، فإنْ كان هذا الحديث من الموضوعات، فلازمه أنْ يكون هؤلاء الذين ذكرناهم، قد وضعوا الحديث، وبالتالي يصدق عليهم الحديث المتقدم: «من كذب عليّ»، ولكن ثبت عند أهل السنة أنّ هؤلاء هم رواة الحديث الموثوق بهم والمعتمد عليهم، فيكون الحديث حينئذٍ صحيحاً.

أما تكذيب هذا الحديث - أي حديث الغدير - أو الموالاة - فقد أجاب عليه الدكتور أحمد محمود صبحي في قوله: «لما كان أهل الظاهر والسلفيون يوالون معاوية فإنّه لم يكن لديهم مفر من اختيار: إما ترك هذه الموالاة، أو القدح بشتى

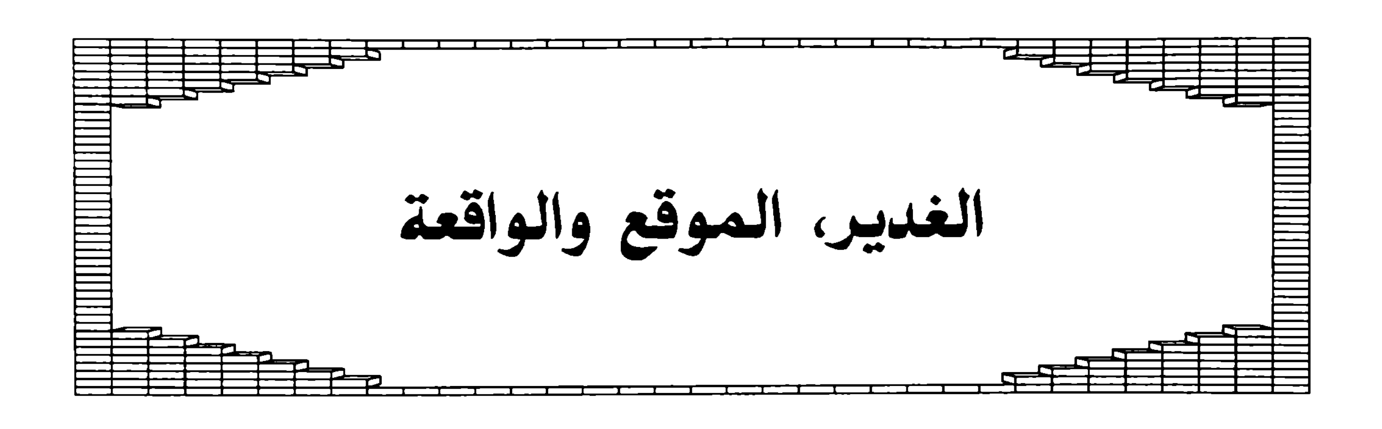
(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٣١٨ - ٣١٩.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٧، ص٤٣٧.
(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١، ص١٠٩.
(٤) ابن تيمية: حقوق آل البيت: ص١٣.
(٥) المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص٣٤٧.

الوسائل في الحديث، وبالرغم من وجوب خضوع العقائد للنصوص إلا إنّ كثيراً من أصحاب المذاهب قد أخضعوا الأحاديث لأهوائهم ومذاهبهم» ويضيف: «. . . فإنّ الحديث لا يدين من حارب عليّاً فحسب، وإنّما يدين كذلك أولئك الذين اعتزلوه، وبذلك يلقي الضوء على حروب عليّ التي اشتبه في أمرها المسلمون والتبس فيها وجه الحق»[1].

المؤرخ السيد حسن الأمين



(١) حسن عبّاس: الصياغة المنطقية للفكر - السياسي - ص٣٥٠.



الغدير، الموقع والواقعة

بقلم: **الدكتور عبد الهادي الفضلي**

لأهميّة يوم الغدير تاريخياً وعقائدياً، رأيت أن أكتب عن موقع (غدير خُمّ) كمَعْلَمٍ من معالم الحجّ والزيارة، فقد ورد - كما سأُشير - استحبابَ الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ الواقع في غدير خُمّ، والذي شُيّد على أرض الموضع الذي وقف فيه رسول الله ﷺ وخطب بالناس خطبته المعروفة بـ(خطبة يوم الغدير)، ونصّ فيها على ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

وإضافة لما تقدّم فإنّ موضع غدير خُمّ من المواضع الإسلامية التي شهدت أكثر من موقف من المواقف النبي ﷺ، والتي يمكننا تلخيصها بالتالي:

١ - وقوعه في طريق الهجرة النبويّة.

٢ - وقوعه في طريق عودة النبي ﷺ من حجّة الوداع.

٣ - وقوع بيعة الغدير.

وكلّ واحد من هذه المواقف الثلاثة يشكّل بُعداً مهماً في مسيرة التاريخ الإسلامي، فالهجرة كانت البدء لانتشار الدعوة الإسلامية وانطلاقها خارج ربوع مكّة، ومن ثم إلى العالم كلّه.

وحجّة الوداع والعودة منها إلى المدينة المنورة كانت ختم الرسالة حيث كمل الدين فتمّت النعمة.

وبيعة الغدير هي التمهيد لعهد الإمام حيث ينتهي عهد الرسالة والرسول.

ومن هنا اكتسب موضع (غدير خُمّ) أهميّته الجغرافية في التراث الإسلامي ومنزلته التكريمية كمَعْلَمة خطيرة من معالم التاريخ الإسلامي.

واشتهر الموقع بحادثة الولاية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام أكثر من شهرته موقعاً أو منزلًا من معالم طريق الهجرة النبويّة أو من طريق العودة من حجّة الوداع.

وقد أشار إلى الحادثة وتواتر روايتها غير واحد من علماء الحديث الثقات الأثبات.

وصحّ عن جماعة منهم ممّن يحصل القطع بخبرهم.

وبعد هذه المقدمة سيكون الحديث عن هذا الموضع الشريف في حدود النقاط التالية:

- اسم الموقع.
- سبب التسمية.
- تحديد الموقع جغرافياً.
- وصف الموقع تاريخياً.
- وصف مشهد النصّ بالولاية.
- الأعمال المندوب إليها شرعاً في هذا الموقع.
- وصف الموقع الراهن.
- الطرق المؤدية إليه.

اسم الموقع

١ - اشتهر الموضع باسم (غدير خُمّ)، ففي حديث السيرة لابن كثير ٤/ ٤٢٤: «قال المطّلب بن زياد عن عبد الله بن

محمد بن عقيل: سمع جابر بن عبد الله يقول: كنّا بالجحفة بغدير خُمّ فخرج علينا رسول الله ﷺ من خباء أو فسطاط...».

وفي حديث زيد بن أرقم، قال: خطب رسول الله ﷺ بغدير خُمّ تحت شجرات»[1].

وكذلك في حديث آخر، قال: «لمّا رجع رسول الله ﷺ من حجّة الوداع ونزل غدير خُمّ، أمر بدوحات فقممن...»[2].

وفي شعر نُصيب:

وقـالـت بـالـغـديـر غـديـر خُـمّ:

أُخَـيَّ إلـى مـتـى هـذا الـركـوبُ

ألـم تَـرَ أنّـنـي مـا دمـتَ فـيـنـا

أنـامُ ولا أنـامُ إذا تـغـيـبُ[3]

---

(١) المراجعات: المراجعة ٥٤، ط١٧، ص٢١٥.

(٢) م. س: ص٢١٧.

(٣) معجم ما استعجم ٢/ ٥١٠.

وفي قول الكميت الأسدي:

ويـــوم الـــدوح دوح غـــديـــر خُـــمّ

أبـــان لـــه الـــولايـــة لـــك أُطـــيـــعـــا

وضبط لفظ «خمّ» في لسان العرب - طبعة دار صادر - بفتح الخاء، ونقل عن ابن دريد أنّه قال: «إنّما هو خُمّ، بضم الخاء»[1].

٢ - كما أنّه يسمى بـ «وادي خُمّ»، أخذاً من واقع الموضع، قال الحازمي: «خُمّ وادٍ بين مكّة والمدينة عند الجحفة، به غدير، عنده خطب رسول الله ﷺ وهذا الوادي موصوف بكثرة الوخامة».

وقد ورد هذا الاسم في حديث السيرة لابن كثير ٤/ ٤٢٢ ونصّه: قال الإمام أحمد: حدّثنا عفّان، حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي عبيد، عن ميمون أبي عبد الله، قال زيد بن

---

(١) انظر: مادّة: خمم، من اللسان.

أرقم - وأنا أسمع -: نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منزلًا يقال له: وادي خُمّ...».

٣ - وقد يطلق عليه «خُمّ» اختصاراً، كما في كتاب «صفة جزيرة العرب» فقد قال مؤلفه الهمداني في ص٢٥٩ - وهو يعدّد بلدان (تهامة اليمن) -: «ومكّة: أحوازها لقريش ولخزاعة، ومنها: مرّ الظهران، والتنعيم، والجعرانة، وسَرِف، وفخّ، والعصم، وعسفان، وقديد - لخزاعة -، والجحفة، وخُمّ، إلى ما يتّصل بذلك من بلد جهينة ومحالّ بني حرب».

وكما في شعر معن بن أَوس المزني:

عفا وخلا مِمّن عهدتَ به خُمُّ

وشاقَك بالمسحاء من سَرِفٍ رسمُ

وفي قول المجالد بن ذي مران الهمداني من قصيدة قالها لمعاوية بن أبي سفيان وقد رأى تمويهه وتمويه عمر بن العاص على الناس في دم عثمان:

ولَـهُ حـرمـةُ الـولاءِ عـلـى الـنـا

سِ بِـخُـمّ وكـان ذا الـقـول جَـهْـرا[1]

٤ - وأُطلق عليه في بعض الحديث اسم الجحفة من باب تسمية الجزء باسم الكلّ، لأنّ خُمّاً جزء من وادي الجحفة الكبير - كما سيأتي -.

وقد جاء هذا في حديث عائشة بنت سعد، الذي أخرجه النسائي في «الخصائص» - كما في المراجعات: ٢١٩ - ونصّه: «عن عائشة بنت سعد، قالت: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يوم الجحفة...».

ورواه ابن كثير في السيرة ٤/ ٤٢٣ عن ابن جرير بسنده بالنصّ التالي: «عن عائشة بنت سعد، سمعت أباها يقول: سمعت رسول الله ﷺ يوم الجحفة، وأخذ بيد عليّ...».

٥ - ويقال له: «الخرّار».. «قال السكوني: موضع الغدير

(١) شعر همدان وأخبارها، حسن عيسى أبو ياسين، طبعة دار العلوم بالرياض، ١٤٠٣هـ، ص٣٧٢.

غدير خُمّ يقال له: «الخرّار»[1].

ويلتقي هذا مع تعريف البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٤٩٢ للخرّار حيث قال: «قال الزبير: هو وادي الحجاز[2] يصب على الجحفة».

ويختصر ناسُنا اليوم الاسم فيطلقون عليه: «الغدير».

٧ - الغُرَبَة، بضم الغين المعجمة وفتح الراء المهملة والباء الموحّدة، هكذا ضبطه البلادي في معجم معالم الحجاز ٣/ ١٥٩، وهو الاسم الراهن الذي يسمّيه به أبناء المنطقة في أيّامنا هذه، قال البلادي: «ويعرف غدير خُمّ اليوم باسم (الغُرَبَة)، وهو غدير عليه نخل قليل لأُناس من البلادية من الحرب، وهو في ديارهم يقع شرق الجحفة على (٨) أكيال، وواديهما واحد، وهو وادي الخرّار».

ويقيّد لفظ «الغدير» بإضافته إلى (خُمّ) تمييزاً بينه وبين غدران أُخرى، قيّدت - هي الأُخرى - بالإضافة، أمثال:

---

(١) معجم ما استعجم ٢/ ٥١٠.

(٢) هكذا بالأصل، وصوابه: وادٍ بالحجاز.

- غدير الأشطاط: موضع قرب عسفان.
- غدير البركة: بركة زبيدة.
- غدير البنات: في أسفل وادي خماس.
- غدير سلمان: في وادي الأغراف.
- غدير العروس: في وادي الأغراف أيضاً[1].

وقد يطلق على غديرنا: «غدير الجحفة»، كما في حديث زيد بن أرقم: «أقبل النبي ﷺ في حجّة الوداع حتى نزل بغدير الجحفة بين مكة والمدينة...»[2].

سبب التسمية

نستطيع أن نستخلص من مجموع التعريفات التي ذكرتها المعجمات العربية للغدير التعريف التالي:

الغدير: هو المنخفض الطبيعي من الأرض يجتمع فيه ماء

(١) انظر: معجم معالم الحجاز، ج٦، مادة: غدير.
(٢) الغدير ١/٣٦، بيروت، ط٤.

المطر أو ماء السبيل، ولا يبقى إلى القيظ[1].

ويجمع على: غُدُر - بضم أوَّلَيه - وغُدْر - بضم أوّله وسكون ثانيه، وأَغْدُرة، وغُدْران.

وعلّلوا تسمية المنخفض الذي يجتمع فيه الماء غديراً بـ:

١ - أنّه اسم مفعول لمغادرة السيل له، أي أنّ السيل عندما يملأ المنخفض بالماء يغادره، بمعنى يتركه بمائه.

٢ - أنّه اسم فاعل «من الغَدْر، لأنّه يخوفّ ورّاده فينضب عنهم، ويغدر بأهله، فينقطع عند شدّة الحاجة إليه»[2].

وقوّاه الزبيدي في معجمه «تاج العروس» بقول الكميت:

ومن غدره نبز الأوّلون

بأن لقّبوه الغديرَ الغديرا

وشرح معنى البيت: بأن الشاعر «أراد (أن) من غدره نبز

---

(١) انظر: لسان العرب وتاج العروس ومحيط المحيط والمعجم الوسيط، مادة: غدر.

(٢) تاج العروس، مادة: غدر.

الأولون الغديرَ بأن لقّبوه الغديرَ، فالغدير الأول مفعول نبز، والثاني مفعول لقّبوه».

وسبب التسمية للموقع بالغدير لأنّه منخفض الوادي.

أمّا خُمّ، فنقل ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٣٨٩ عن الزمخشري أنّه قال: «خُمّ: اسم رجل صبّاغ، أُضيف إليه الغدير الذي بين مكّة والمدينة بالجحفة».

ثم نقل عن صاحب «المشارق» أنّه قال: «إنّ خُمّاً اسم غيضة هناك، وبها نسب إليها».

والتعليل نفسه نجده عند البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٣٦٨ قال: «خُمّ على ثلاثة أميال من الجحفة، يسرة عن الطريق، وهذا الغدير تصبّ فيه عين وحوله شجر كثير ملتف، وهو الغيضة التي تسمّى خُمّاً».

تحديد الموقع جغرافياً

نصَّ غير واحد من اللغويّين والجغفرافيين والمؤرخين على أنّ موقع غدير خُمّ بين مكّة والمدينة.

ففي لسان العرب - مادة: خم: «وخُمّ: غدير معروف بين مكّة والمدينة».

وفي النهاية، لابن الأثير - مادة: خم: «غدير خُمّ: موضع بين مكة المدينة».

وفي معجم البلدان ٢/ ٣٨٩: وقال الحازمي: خُمّ: وادٍ بين مكّة والمدينة».

وفي المصدر نفسه: قال الزمخشري: خُمّ: اسم رجل صبّاغ، أضيف إليه الغدير الذي هو بين مكّة والمدينة».

ويبدو أنّه لا خلاف بينهم في أنّ موضع غدير خُمّ بين مكّة والمدينة، وإنّما وقع شيء قليل من الخلاف بينهم في تعيين مكانه بين مكّة والمدينة، فذهب الأكثر إلى أنّه في (الجحفة)، ويعنون بقولهم (في الجحفة) أو (بالجحفة) وادي الجحفة - كما سيأتي -.

من هؤلاء:

ابن منظور في لسان العرب - مادة: خُمّم، قال: «وخُمّ: غدير معروف بين مكّة والمدينة، بالجحفة، وهو غدير خُمّ».

والفيروز آبادي في القاموس المحيط - مادة: خم، قال: «وغدير خُمّ: موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين».

والزمخشري في نصّه المتقدّم الذي نقله عنه الحموي في معجم البلدان ٢/ ٣٨٩ القائل فيه: «(خُمّ): اسم رجل صبّاغ، أُضيف إليه الغدير الذي بين مكّة والمدينة بالجحفة».

وفي حديث السيرة لابن كثير ٤/ ٤٢٤ - المتقدّم -: «قال المطّلب بن عبد الله بن محمد بن عقيل، سمع جابر بن عبد الله يقول: كنّا بالجحفة بغدير خُمّ. . .».

وكما قلت، يريدون من (الجحفة) في هذا السياق: الوادي لا القرية التي هي الميقات، وذلك بقرينة ما يأتي من ذكرهم تحديد المسافة بين غدير خُمّ والجحفة، الذي يعني أن غدير خُمّ غير الجحفة (القرية)، ولأنّ وادي الجحفة يبدأ من الغدير وينتهي عند البحر الأحمر فيكون الغدير جزءاً منه، وعليه لا معنى لتحديد المسافة بينه وبين الوادي الذي هو جزء منه.

وتفرّد الحميري في الروض المعطار - ط١٩٧٥ ص١٥٦

- فحدّد موضعه بين الجحفة وعسفان، قال: «وبين الجحفة وعسفان غدير خُمّ».

وهو - من ريب - وَهْمٌ منه، وبخاصّة أنّه حدّد الموضع بأنّه على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق، حيث لا يوجد عن هذه المسافة بين الجحفة وعسفان موضع يعرف بهذا الاسم.

والظاهر أنّه نقل العبارة التي تحدّد المسافة بثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق من «معجم ما استعجم»، ولم يلتفت إلى أنّ البكري يريد بيسرة الطريق الميسرة للقادم من المدينة إلى مكّة، وليس العكس، فوقع في هذا التوهّم.

قال البكري في معجمه ٢/ ٣٦٨: «وغدير خُمّ على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة عن الطريق»، - وكما قلت - يريد بالميسرة جهة اليسار بالنسبة إلى القادم من المدينة إلى مكّة بقرينة ما ذكره في بيان مراحل الطريق بين الحرمين ومسافاتها عند حديثه عن العقيق في ج٣ ص٩٥٤ - ٩٥٥، حيث بدأ بالمدينة، قال: «والطريق إلى مكّة من المدينة على العقيق: من المدينة إلى ذي الحليفة. . .».

ونخلص من هذا إلى أنّ غدير خُمّ يقع في وادي الجحفة على يسرة الطريق الحاجّ من المدينة إلى مكّة، عند مبتدأ وادي الجحفة حيث منتهى وادي الخرّار.

ومن هنا كان أن أسماه بعضهم بالخرّار - كما تقدّم -.

ولعلّ علّة ما استظهره السمهودي في كتابه وفاء الوفا ٢/ ٢٩٨ ط١، من أنّ الخرّار بالجحفة هو ما أوضحته من أنّ غدير خُمّ مبتدأ وادي الجحفة، وعنده منتهى وادي الخرّار.

ويؤيد هذا الذي ذكرته قول الزبير - الذي نقلته آنفاً عن معجم ما استعجم ٢/ ٤٩٢ - من أنّ الخرّار وادٍ بالحجاز يصب على الجحفة.

وقد يشير إلى هذا القول الحموي في معجم البلدان ٢/ ٣٥٠: «الخرّار... وهو موضع بالحجاز، يقال: هو قرب الجحفة».

وعبارة عرّام التالية تؤكد لنا أنّ الغدير من الجحفة، قال - كما نقله عنه الحموي في معجم البلدان ٢/ ٣٨٩ -: «ودون الجحفة على ميل غدير خُمّ، وواديه يصب في البحر»، حيث

يعني بواديه وادي الجحفة لأنّه هو الذي يصب في البحر حيث ينتهي عنده.

أمّا المسافة بين موضع غدير خُمّ والجحفة (القرية = الميقات) فَحُدّدت - فيما لديَّ من مراجع - بالتالي:

- حدّدها البكري في معجم ما استعجم ٢/٣٦٨ بثلاثة أميال، ونقل عن الزمخشري أنّ المسافة بينهما ميلان ناسباً ذلك إلى (القيل) إشعاراً بضعفه.

وإلى القول بأن المسافة بينهما ميلان ذهب الحموي في معجمه ٤/١٨٨ قال: «وغدير خُمّ بين مكّة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان».

وقدّر الفيروز آبادي المسافة بثلاثة أميال، قال في القاموس - مادّة خم: «وغدير خُمّ: موضع على ثلاثة أميال بالجحفة[١] بين الحرمين».

---

(١) بالجحفة، هكذا في مصوّرة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر لعام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، وصوابه: دون الجحفة.

وقدّرها بميل كلّ من نصر وعرّام[1]، ففي تاج العروس - مادّة: «وقال نصر: دون الجحفة على ميل بين الحرمين الشريفين».

وفي معجم البلدان ٢/ ٣٨٩: «وقال عرّام: ودون الجحفة على ميل غدير خُمّ».

وهذا التفاوت في المسافة من الميل إلى الاثنين إلى الثلاثة أمر طبيعي، لأنه يأتي - عادة - من اختلاف الطريق التي تسلك، وبخاصّة أنّ وادي الجحفة يتّسع بعد الغدير، ويأخذ بالاتّساع أكثر حتى قرية الجحفة ومن بعدها أكثر حتى البحر، فربّما سلك أحدهم حافة الجبال فتكون المسافة ميلًا، وقد يسلك أحدهم وسط الوادي فتكون المسافة ميلين، ويسلك الآخر حافة الوادي من جهة السهل فتكون المسافة ثلاثة أميال.

---

(١) هما: عرّام بن الأصبغ السلمي، المتوفّى نحو ٢٧٥هـ، صاحب كتاب «أسماء جبال تهامة وسكّانها وما فيها من قرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه».
ونصر عبد الرحمن الإسكندري، المتوفّى ٥٦١ هـ، له: كتاب «الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها».

وصف الموضوع تاريخياً

احتفظ لنا التاريخ بصورة تكاد تكون كاملة المعالم متكاملة الأبعاد لموضع غدير خُمّ، فذكر أنّه يضم المعالم التالية:

١ - العين:

ففي لسان العرب - مادة: خم: «قال ابن الأثير: هو موضع بين مكّة والمدينة تصبّ فيه عين هناك»[١].

وفي معجم ما استعجم ٢/٣٦٨ والروض المعطاء: ١٥٦: «وهذا الغدير تصبّ فيه عين.».

وفي معجم البلدان ٢/ ٣٨٩: «وخُمّ: موضع تصبّ فيه عين».

وتقع هذه العين في الشمال الغربيّ للموقع كما سيتّضح لنا هذا من ذكر المعالم الأُخرى.

---

(١) وانظر: النهاية - مادة: خم.

٢ - الغدير:

وهو الذي تصبّ فيه العين المذكورة كما هو واضح من النصوص المنقولة المتقدّمة.

٣ - الشجر:

ففي حديث الطبراني: أنّ رسول الله ﷺ خطب بغدير خُمّ تحت شجرات[١].

وفي حديث الحاكم: لَما رجع رسول الله ﷺ من حجّة الوداع، ونزل غدير خُمّ أمر بدوحات فقممن»[٢].

وفي حديث الإمام أحمد: «وظُلِّل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سَمُرَة من الشمس»[٣].

وفي حديثه الآخر: «وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين فصلّى الظهر»[٤].

---

(١) المرجعات: المراجعة ٥٤.
(٢) م. ن.
(٣) م. ن.
(٤) م. ن.

والشجر المشار إليه هنا من نوع (السَمُر)، وحداه (سَمُرَة) بفتح السين المهملة وضمّ الميم وفتح الراء المهملة، وهو من شجر الطَلَح، وهو شجر عظيم، ولذا عبّر عنه بالدوح كما في الأحاديث والأشعار التي مر شيءٌ منها، واحده دوحة، وهي الشجر العظيمة المتشعّبة ذات الفروع الممتدّة.

وهو غير (الغيضة) الآتي ذكرها، لأنه مفترّق في الوادي هنا وهناك.

٤ - الغيضة:

وهي الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفّ، وتجمع على غياض وأغياض.

وموقعها حول الغدير، كما ذكر البكري في معجم ما استعجم ٢/٣٦٨، قال: «وهذا الغدير تصبّ فيه عين، وحوله شجر كثير ملتف: وهي الغيضة».

ومرّ بنا أن صاحب المشارق ذكر «أنّ خُمّاً اسم غيضة هناك، وبها نسب إليها».

٥ - النبت البَرّيّ:

ونقل ياقوت الحموي في معجمه البلداني ٢/ ٣٨٩ عن عرّام أنّه قال: «لا نبت فيه غير المرخ والثمام والأراك والعشر».

٦ - المسجد:

وذكروا أنّ فيه مسجداً شُيِّد على المكان الذي وقف فيه رسول الله ﷺ، وصلّى وخطب ونصب عليّاً للمسلمين خليفة ووليّاً.

وعيّنوا موقعه بين الغدير والعين، قال البكري في معجمه ٢/ ٣٦٨: «وبين الغدير والعين مسجد النبي ﷺ».

وفي معجم البلدان ٢/ ٣٨٩ إنّ صاحب المشارق قال: «وخُمّ موضع تصبّ فيه عين، وبين الغدير والعين مسجد رسول الله ﷺ».

ويبدو أنّ هذا المسجد قد تداعى ولم يبق منه في زمن الشهيد الأول، المتوفّى سنة ٧٨٦هـ، إلّا جدرانه، كما أشار إلى هذا الشيخ صاحب الجواهر - في الجواهر ٢٠/ ٧٥ طبعة

النجف - نقلًا عن كتاب «الدروس في فقه الإمامية» للشهيد الأول، قال: «وفي الدروس: والمسجد باق إلى الآن جدرانه، والله العالم».

أمّا الآن فلم نجد له أثراً . . كما سأُشير إلى هذا فيما يعقبه.

٧ - ونقل ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٣٨٩ عن الحازمي أنّ «هذا الوادي موصوف بكثرة الوخامة».

يقال: وخم المكان وخامة إذا كان غير ملائم للسكنى فيه.

٨ - ومع وخامته ذكر عرّام - فيما نقله ياقوت عنه - أنّ به أُناساً من خزاعة وكنانة، ولكنهم قليلون، قال: «وبه أُناس من خزاعة وكنانة غير كثير».

وصف مشهد النصّ بالولاية

وينسق على ما تقدّم من وصف الموضوع تاريخياً وصف حادثة الولاية بخطواتها المتسلسلة والمترتّب بعضها على بعض لتكتمل أمام القارىء الكريم الصورة للحادثة التي أعطت هذا الموضوع الشريف أهمّيته كمعلم مهمّ من معالم

السيرة النبوية المقدّسة، وتتلخص بالتالي:

١ - وصول الركب النبوي بعد منصرفه من حجّة الوداع إلى موضع غدير خُمّ ضحى نهار الثامن عشر من شهر ذي الحجّة الحرام من السنة الحادية عشرة للهجرة.

فعن زيد بن أرقم: «لّما حجّ رسول الله ﷺ حجّة الوداع، وعاد قاصداً المدينة أقام بغدير خُمّ - وهو ماء بين مكّة والمدينة - وذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة الحرام»[١].

٢ - ولأنّ هذا الموضع كان مفترق الطريق المؤدية إلى المدينة المنوّرة، والعراق، والشام، ومصر، تفرّق الناس عن رسول الله ﷺ متّجهين وجهة أوطانهم، فأمر ﷺ عليّاً عليه السلام أن يجمعهم بردّ المتقدّم وانتظار المتأخّر.

ففي حديث جابر بن عبد الله الأنصاري: «إنّ رسول الله نزل بخُمّ فتنحّى الناس عنه، وأمر عليّاً فجمعهم»[٢].

---

(١) الغدير ١/ ٣٣.
(٢) الغدير ١/ ٢٢.

وفي حديث سعد: «كنّا مع رسول الله فلمّا بلغ غدير خُمّ وقف للناس، ثم رد من تقدّم، ولحق من تخلّف»[1].

٣ - ونزل الرسول قريباً من خمسة سَمُرات دوحات متقاربات، ونهى أنْ يجلس تحتهنّ.

يقول زيد بن أرقم: «نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين مكّة والمدينة عند سَمُرات خمس دوحات عظام»[2].

وفي حديث عامر بن ضمرة وحذيفة بن أُسيد، قالا: «لَمّا صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حجّة الوداع، ولم يحجّ غيرها، أقبل حتى إذا كان بالجحفة نهى عن شجرات بالبطحاء متقاربات لا ينزلوا تحتهنّ»[3].

٤ - ثم أمر صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يقيم ما تحت تلكم السمرات من الشوك، وأنّ تشذّب فروعهنّ المتدلية، وأن ترشّ الأرض تحتهنّ.

---

(١) المراجعات: ٢١٩، نقلاً عن خصائص النسائي: ٢٥.
(٢) الغدير ١/ ٣١.
(٣) الغدير ١/ ٤٦.

ففي حديث زيد بن أرقم: «فأمر بالدوحات فقمَّ ما تحتهنّ من شوك»[1].

وفي حديثه الآخر: «أمر رسول الله ﷺ بالشجرات فقُمَّ ما تحتها، ورُشّ»[2].

وفي حديث عامر بن ضمرة وحذيفة بن أُسيد: «فقُمَّ ما تحتهنّ وشذّبن عن رؤوس القوم»[3].

٥ - وبعد أن نزلت الجموع منازلها وأخذت أماكنها، أمر ﷺ مناديه أن ينادي: «بالصلاة جماعةً».

يقول حبّة بن جوين العرني البجلي: «لمّا كان يوم غدير خُمّ دعا النبي ﷺ: (الصلاة جامعة) نصف النهار...»[4].

وفي حديث زيد المتقدّم: «فأمر بالدوحات فقُمَّ ما تحتهنّ من شوك ثم نادى: الصلاة جامعةً».

---

(١) الغدير ١/ ٣٦.
(٢) الغدير ١/ ٣٤.
(٣) الغدير ١/ ٤٧.
(٤) الغدير ١/ ٢٤.

٦ - وبعد أن تكاملت الصفوف للصلاة جماعة، قام ﷺ إماماً بين شجرتين من تلكم السمرات الخمس.

يقول عامر وحذيفة في حديثهم المتقدّم: حتى إذا نودي للصلاة غدا إليهنّ فصلّى تحتهنّ».

وفي رواية الإمام أحمد عن البراء بن عازب، قال: «كنّا مع رسول الله فنزلنا بغدير خُمّ فنودي فينا الصلاة جماعة، وكسح رسول الله ﷺ تحت شجرتين، فصلّى الظهر»[1].

٧ - وظُلِّلَ لرسول الله ﷺ عن الشمس أثناء صلاته بثوب، عُلّق على إحدى الشجرتين.

وفي رواية الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم:

«وظُلِّل لرسول الله ﷺ وسلّم بثوب على شجرة سمرة من الشمس»[2].

٨ - وكان ذلك اليوم هاجراً شديد الحرّ.

يقول زيد بن أرقم: فخرجنا إلى رسول الله في يوم شديد

---

(١) المراجعات: المراجعة ٥٤، ص٢١٨ - ٢١٩.

(٢) م. س: ص٢١٧.

الحرّ، وإنّ منّا من يضع بعض ردائه على رأسه، وبعضه على قدمه من شدة الرمضاء»[1].

٩ - وبعد أن انصرف ﷺ من صلاته، أمر أن يصنع له منبر من أقتاب الإبل[2].

١٠ - ثم صعد ﷺ المنبر متوسّداً يد عليّ عليه السلام.

يقول جابر في حديثه المتقدّم: «وأمر عليّاً فجمعهم، فلمّا اجتمعوا قام فيهم وهو متوسّد يد عليّ بن أبي طالب».

١١ - وخطب ﷺ خطبته التالية:

الحمد الله، ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ، ولا مضلّ لمن هدى.

وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

أمّا بعد:

---

(١) الغدير ١/ ٣٦.
(٢) انظر: الغدير ١/ ١٠.

أيّها الناس: قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لم يُعَمَّر نبيّ إلاّ مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي أُوشك أن أُدعى فأُجيب، وإني مسؤول، وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنّك قد بلَّغتَ ونصحتَ، وجهدتَ، فجزاك الله خيراً.

قال: **ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حق، وناره حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟**

قال: بلى نشهد بذلك.

قال: **اللهم اشهد.**

قال: **أيها الناس ألا تسمعون؟**

قالوا: بلى.

قال: **فإنّي فرطكم على الحوض، وأنتم واردون عَلَيَّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبُصْرَى، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين؟!**

فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: **الثقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عَلَيَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تَقَدَّموهما فتهلكوا، ولا تُقْصَروا عنهما فتهلكوا.**

ثم أخذ بيد عليّ فرفعهما حتى رئي بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال:

أيّها الناس: مَنْ أوْلى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: **إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنتُ مولاه فَعَليٌّ مولاه.**

يقولها ثلاث مرات، وفي رواية الإمام أحمد: أربع مرّات.

ثم قال: اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحبب من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وٱنصر من نصره، وٱخذل من خذله، وأدرِ الحقّ معه حيث دار.

ألا فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ[1].

١٢ - «ثم طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين عليه السلام وممّن هنّأه في مقدمة الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر، كلٌّ يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب، أصبحتَ، وأمسيتَ، مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة»[2].

١٣ - «وقال ابن عباس: وَجَبَتْ - والله - في أعناق القوم»[3].

يعني بذلك البيعة بالولاية والإمرة والخلافة.

١٤ - ثم استأذن الرسول شاعرُهُ حسّان بن ثابت في أن يقول شعراً في المناسبة.

ففي رواية الغدير ١/ ١١: فقال حسّان: ائذن لي يا رسول الله أن أقول في عليّ أبياتاً تسمعهنّ:

فقال: **قلْ، على بركة الله.**

---

(١) الغدير: ١/ ١٠ - ١١.

(٢) م. ن.

(٣) م. ن.

فقام حسان فقال: يا معشر مشيخة قريش أتبعها قولي بشهادة رسول الله في الولاية ماضية، ثم قال:

يناديهم يوم الغدير نبيُّهم

بخُمْ فأسمع بالنبي مناديا

يقول: فمن مولاكم ووليّكم

فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلٰهك مولانا وأنت وليّنا

ولم ترى منا في الولاية عاصيا

فقال له: قمّ يا عليّ فإنّني

رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

الأعمال المندوب إليها شرعاً في هذا الموقع

الأعمال المندوب إليها شرعاً في هذا الموضع، هي:

١ - استحباب الصلاة في مسجده المعروف - تاريخياً -

بمسجد رسول الله، ومسجد النبي، ومسجد غدير خُمّ.

٢ - الإكثار فيه من الدعاء والابتهال إلى الله تعالى.

قال الشيخ صاحب الجواهر في كتابه جواهر الكلام ٢٠/ ٧٥ط بيروت ١٩٨١: «وكذلك يستحبّ للراجع على طريق المدينة الصلاة في مسجد غدير خُمّ، والإكثار فيه من الدعاء، وهو موضع النصّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أمير المؤمنين عليه السلام».

ومن الحديث الذي يدلّ على ذلك: ما رواه الشيخ الحرّ العاملي في الوسائل ٣/ ٥٤٨ ط٥، بيروت ١٤٠٣هـ:

١ - بإسناده عن حسّان الجمّال: قال: حملت أبا عبد الله الصادق عليه السلام من المدينة إلى مكّة، قال: فلمّا انتهينا إلى مسجد الغدير نظر إلى ميسرة المسجد فقال: «ذاك موضوع قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: **«من كنت مولاه فعَليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه»**.

٢ - بإسناده عن عبد الرحمٰن بن الحجّاج: قال: سألت أبا إبراهيم الكاظم عليه السلام عن الصلاة في مسجد غدير خُمّ

بالنهار وأنا مسافر؟

فقال: صلِّ فيه، فإنّ فيه فضلًا، وقد كان أبي عليه السلام يأمر بذلك.

٣ - بالإسناد عن أبان، عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام قال: إنّه تستحبّ الصلاة في مسجد الغدير، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقام فيه أمير المؤمنين عليه السلام وهو موضع أظهر الله عز وجلّ فيه الحقّ.

وقال الشيخ يوسف البحراني في الحدائق الناضرة ١٧/ ٤٠٦، ط٢، بيروت ١٤٠٥هـ: «يستحبّ لقاصدي المدينة المشرّفة المرور بمسجد الغدير ودخوله والصلاة فيه والإكثار من الدعاء».

وهو الموضع الذي نصّ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على إمامة أمير المؤمنين وخلافته بعده، ووقع التكليف بها، وإنّ كانت النصوص قد تكاثرت بها عنه صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك اليوم، إلّا أنّ التكليف الشرعي والإيجاب الحتمي إنّما وقع في ذلك اليوم، وكانت تلك النصوص المتقدّمة من قبيل التوطئة لتوطّن

النفوس عليها وقبولها بعد التكليف بها.

فروى ثقة الإسلام في (الكافي) والصدوق في (الفقيه) عن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: يستحبّ الصلاة في مسجد الغدير، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقام فيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو موضع أظهر الله عزّ وجل فيه الحقّ.

وروى المشايخ الثلاثة - نوّر الله تعالى مضاجعهم - في الصحيح عن عبد الرحمٰن بن الحجّاج: قال: سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن صلاة في مسجد غدير خُمّ وأنا مسافر، فقال: صَلِّ فيه، فإنّ فيه فضلًا كثيراً، وكان أبي يأمر بذلك».

وقد ذكر استحباب الصلاة في مسجد الغدير غير واحد من فقهائنا الإمامية، مضافاً إلى مَن ذكرتهم، منهم:

- الشيخ الطوسي في «النهاية»، قال: «وإذا انتهى [يعني الحاجّ] إلى مسجد الغدير، فليدخله، وليصلِّ فيه ركعتين»[١].

---

(١) الينابيع الفقهية - الحج: ٢٢٠.

- القاضي ابن البرّاج في المهذّب، قال: «فمن توجه إلى زيارته ﷺ من مكّة بعد حجّه فينبغي له إذا أتى مسجد الغدير... فليدخله، ويصلّي من ميسرته ما تيسّر له، ثم يمضي إلى المدينة»(١).

- الشيخ ابن إدريس في «السرائر»، قال: وإذا انتهى [الحاجّ] إلى مسجد الغدير دخله وصلّى فيه ركعتين»(٢).

- الشيخ ابن حمزة في «الوسيلة»، قال: «وصلّى [يعني الحاجّ] أيضاً في مسجد الغدير ركعتين إذا بلغه»(٣).

- الشيخ يحيى بن سعيد في «الجامع» قال: فإذا أتى [الحاج] مسجد الغدير دخل وصلّى ركعتين»(٤).

- السيد الحكيم في «منهاج الناسكين»(٥)، قال: «وكذا

(١) م. س: ٣٥٣.
(٢) م. س.: ٥٥٨.
(٣) م. س: ٦١٠.
(٤) م. س: ٧٢٩.
(٥) ص١٢١، ط٦، لعام ١٣٨٢هـ.

يستحبّ الصلاة في مسجد غدير خُمّ والإكثار من الابتهال والدعاء فيه».

وهو الموضع الذي نصّ فيه النبيّ صلى الله عليه وآله بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وعقد البيعة له، صلّى الله عليهما وعلى آلهما الطاهرين».

وصف الموقع الراهن:

وصفه المقدّم عاتق بن غيث البلادي - المؤرّخ الحجازي المعاصر - في كتابه معجم معالم الحجاز ٣/ ١٥٩، ط١، قال: «ويعرف غدير خُمّ اليوم باسم (الغُرَبَة)، وهو غدير عليه نخل قليل لأُناس من البلادية من حرب، وهو في ديارهم يقع شرق الجحفة على (٨) أكيال، وواديهما واحد، وهو وادي الخرّار[١].

وكانت عين الجحفة تنبع من قرب الغدير، ولا زالت ماثلة للعيان.

---

(١) تقدّم أنْ أوضحت استناداً على ما ذكره بعض المؤرخين الجغرافيين القدامى: أنّ الغدير مبتدأ وادي الجحفة، وعنده ينتهي وادي الخرّار.

وتركبُ الغديرَ من الغرب والشمال الغربي آثار بلدة كان لها سور حجريّ لا زال ظاهراً، وأنقاض الآثار تدلّ على أنّ بعضها كان قصوراً أو قلاعاً، وربّما كان هذا حيّاً من أحياء مدينة الجحفة، فالآثار هنا تتشابه».

وقد استطلعتُ - ميدانياً - الموضع من خلال رحلتين:

- كانت أُولاهما: يوم الثلاثاء ٧/ ٥/ ١٤٠٢هـ = ٢/ ٣/ ١٩٨٢م.

- والثانية: يوم الأربعاء ١٨/٦/١٤٠٩هـ = ٢٥/ ١/ ١٩٨٩م.

الرحلة الأُولى:

غادرت مدينة جدّة شروق الشمس بسيارة جيب وبعد ساعتين تقريباً من مغادرتنا جدّة وصلنا إلى مفرق الجحفة قُبيل مدينة رابغ، والكائن عند مطارها المحلّي يمنة الطريق، نزلنا عن الطريق العام إلى طريق الجحفة، ولم تكن آنذاك مُزفَّتةً، وفي أكثر مواضعها غير ممهّدة.

وبعد نحو عشر كيلومتر وصلنا إلى مسجد الميقات الذي

شُيّد من قبل الحكومة السعودية ملاصقاً لأساس المسجد القديم المندثر.

ودخلنا المسجد، وكان خادمه نائماً - وهو من أعراب تلك البادية -، فأيقظناه، وسألناه عن الطريق إلى قصر علياء، وما في الطريق ممّا قد يصدّ السيّارة فيعرقل سيرنا.

ثم صعدت على سطح المسجد - وكان سُلّمه مليئاً بطيور الخفّاش - ونظرت الطريق وحدّدت الجهة الميسّرة للسير فيها.

وانطلقنا على بقايا آثار طريق الهجرة وسط أكوام من الحجارة التي جرفتها السيول إليه، ووسطَ رمال عملت منها السيول ما يشبه السدود الحاجزة، شقّتها السيارة شقّاً.

وبعد أن قطعنا ما يقرب من خمسة كيلوات وصلنا إلى قصر علياء، ويقع هذا القصر على حدّ قرية الجحفة (الميقات) من جهة المدينة المنوّرة ورابغ، كما أنّ المسجد الذي ذكرناه يقع على حدّ القرية من جهة مكّة المكرّمة.

وبعد أن استرحنا قليلًا والتقطنا بعض الصور للقصر،

انعطفت الطريق بنا إلى اليمين لانعطاف الجبال المطلّة عليه من جهة يمناها للقادم من مكّة، ويسراها للقادم من المدينة.

وفي متّسع من الوادي تشعّبت فيه الطرق على مدى عرضه، حتى وصلنا إلى رملة غزيرة انعدمت فيها آثار الطريق فوقفنا قليلًا، ولاح لنا راعٍ مع غنيمات عند سفح الجبل، فنزلت قاصداً إيّاه، وكانت رجلاي تغوصان في الرمل إلى ما يقرب من الركبتين، ولوّحت له بعباءتي فوقف ثم اتّجه جهتي والتقينا غير بعيد من الجبل، وسألته عن طريق الغربة فقال: سيروا باستقامة سيّارتكم، وبعد قليل توافيكم حرّة تطّلعون فيها على مزرعة صغيرة جديدة، ومن على الحرّة تبين لكم نخيل الغربة.

فدلفنا بسيارتنا نشقّ الرمال شقّاً حتى انتهت بنا إلى مرتفع ارتقينا به الحرّة التي ذكرها الراعي.

وفي الحرّة التقينا سيارة نقل صغيرة (وانيت) يسوقها شابّ بدوي، وإلى جانبه شيخ كبير، فاستوقفتهما، وبعد السلام عليهما، سألتهما عن الأصل والوطن، فقالا: من البلادية من حرب، نسكن بعد الغربة بقليل.

قلت: الغربة هي مقصدنا.

قال الشيخ: أنتم من الشرقية تريدون الغدير؟

قلت: هَلَّهْ هَلَّهْ، أي: نعم نعم، بلهجة البادية.

قال: هي عند النزلة من الحرّة يمين الطريق مباشرة.

فودّعناهما ودخلنا الغدير حامدين الله توفيقه وشاكرين على السلامة.

وبعد أن استقرّ بنا الجلوس تناولنا من القهوة والشاي، ثم قمنا وتجوّلنا بالوادي الفسيح والتقطنا من الصور من مختلف جهاته.

كان الوادي فسيحاً جدّاً، تتخلّله أشجار السَّمُر منتشرة في كلّ أبعاده.

ويقع بين سلسلة جبال من جنوبه وشماله.

ومسيله يمرّ مع سفوح جباله الجنوبية، وهي أعلى وأضخم من جباله الشمالية.

وعلى المسيل من جهة سهل الوادي ثلاث كوم من النخيل

بين كلّ كومة وأُخرى نحو عشرين متراً، وكلّ كومة لا تتجاوز الآحاد.

ومن المظنون قوّياً أنّها نبتت هنا بفعل ما يرميه المارّون بالوادي من نودى التمر الذي يتناولونه مع القهوة.

وقريباً من منعطف الوادي إلى جهة الرغب غيضة، وسطها عين جارية، قد تكون هي عين الغدير التاريخية!

أمّا الغدير فلم نر له آثاراً، وكذلك المسجد، ولعلّهما عُفّيا بفعل تأثير عوامل التعرية والإبادة من أمطار وسيول ورياح وما إليها!

وبعد أن استكملنا استطلاعنا عدنا على الطريق نفسه إلى جدّة، ووصلنا إليها بعد الغروب بساعة تقريباً.

الرحلة الثانية:

وكانت بعد عودتنا من زيارة قبر السيّدة آمنة بنت وهب أُم النبيّ ﷺ، في الأبواء (الخريبة)، ومبيتنا في منزل الحاجّ علي بن سالم العبيدي بوادي الفرع.

وبعد أن وصلنا إلى ميقات الجحفة قبيل الظهر سلكنا

الطريق السابقة إلى الغدير، فرأيناها قد غيّر السيل العرم الذي جاء المنطقة بعد رحلتنا الأولى الكثير من معالم الطريق، وعَفّى القليل المتبقي من آثارها.

ورأينا قبيل وصولنا إلى الغدير، ومقابل الحرّة، على قمّة الجبل المحاذي لها، منازل من البناء الجاهز لشركة إنشائية، يسلك إليها طريق ممهَّدة تتفرَّع من طريق رابغ - الغدير.

وعندما وصلنا إلى الغدير رأينا السيل قد فعل مفعوله في تغيير شيء غير قليل من المعالم التي رأيناها سابقاً.

منها: إنهار الجرف السابق المطلّ على المسيل بما لا يقلّ عن ثلاثة أمتار فأطاح ببعض النخيل التي كانت عليه.

ومنها: أنْ ذهب بالغيضة إلّا بقايا منها.

ورأينا العين قد أصبحت تجري من تحت الجرف الجديد، ويسير مجراها بحافّته إلى كومة من الشجر لا تبعد عن منبع العين بأكثر من عشرين متراً.

وبعد أن التقطنا بعض الصور، وتناولنا التمر والقهوة، توجّهنا إلى رابغ عن الطريق الأُخرى التي لا تمرّ بالجحفة،

والتي تقع شرقيّ رابغ.

الطريق المؤديّة إلى الموقع:

رأينا ممّا تقدّم أنّ هناك طريقين تؤدّيان إلى موقع غدير خُمّ، إحداهما من الجحفة، والأُخرى من رابغ.

طريق الجحفة:

تبدأ من مفرق الجحفة عند مطار رابغ سالكاً تسعة كيلومترات مزفّتة إلى أوّل قرية الجحفة القديمة، حيث شيّدت الحكومة السعودية، بعد أن هدمت المسجد السابق الذي رأيناه في الرحلة الأولى، مسجداً كبيراً في موضعه، وحمّامات للاغتسال، ومرافق صحّية ومواقف سيّارات.

ثم تنعطف الطريق شمالاً وسط حجارة ورمال كالسدود بمقدار خمسة كيلومترات إلى قصر علياء، حيث نهاية قرية الميقات.

ثم تنعطف الطريق إلى جهة اليمين، قاطعاً بمقدار كيلوين أكواماً من الحجارة وتلولاً من الرمال، وحرّة قصيرة المسافة.

ثم تهبط من الحرّة يمنة الطريق حيث وادي الغدير.

طريق رابغ:

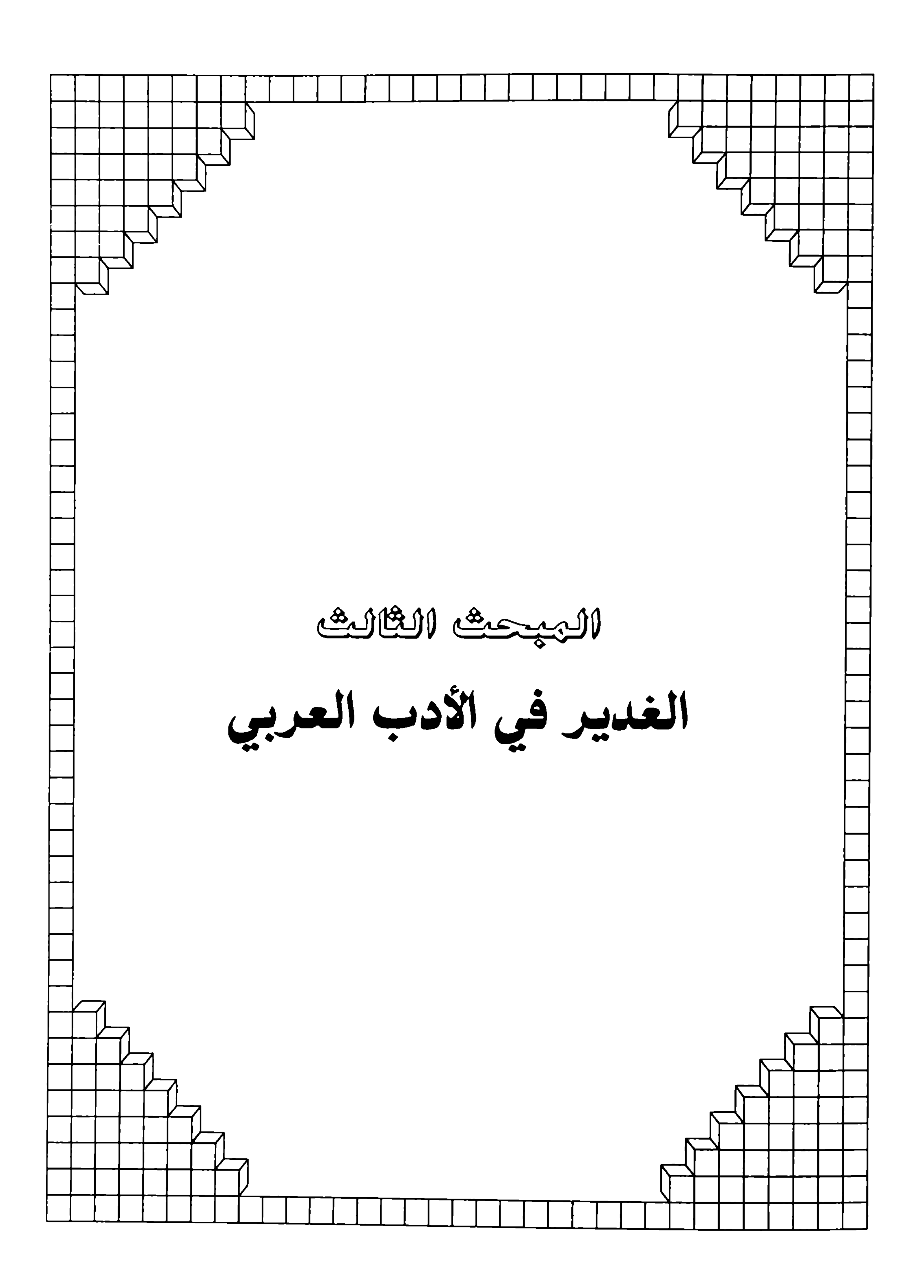
وتبدأ من مفرق طريق مكّة - المدينة العامّ، الداخل إلى مدينة رابغ عند إشارة المرور، يمنة الطريق للقادم من مكّة، مارّةً ببيوتات من الصفيح، وأُخرى من الطين يسكنها بعض بدو المنطقة.

ثم يصعد على طريق قديمة مزفَّتة تنعطف به إلى اليسار - وهي الطريق العامّ القديمة التي تبدأ بقاياها من وراء مطار رابغ -.

وبعد مسافة عشر كيلوات، وعلى اليمين، يتفرّع منه الفرع المؤدّي إلى الغدير، ومسافته من رابغ إلى الغدير ٢٦ كيلو تقريباً.

وفي ضوء ما تقدّم:

يقع غدير خُمّ من ميقات الجحفة مطلع الشمس بحوالي ٨ كيلومتر، وجنوب شرقي رابغ بما يقرب من ٢٦ كلم.



المبحث الثالث

الغدير في الأدب العربي

تمهيد

يزخر الشّعر العربي بالحديث عن يوم الغدير وصاحب الغدير، ولا غرو في ذلك فهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، وفارس الإسلام وأوّل النّاس إسلاماً. . . ، وهو العالِم المتعلّم من رسول الله، والحكيم الذي يقتبس الأدباء والحكماء من معين بيانه وبنات أفكاره. . .

ففي فضائل الإمام علي عليه السلام يقول الشاعر صفيّ الدّين الحلّي (المتوفّى عام ٧٥٠ للهجرة):

جُمعت في صفاتك الأضدادُ — فلهذا عَزَّت لَكَ الأندادُ

زاهدٌ حاكمٌ حليمٌ شجاعٌ — ناسكٌ فاتكٌ فقيرٌ جوادُ

شيمٌ ما جُمعت في بشرٍ قطُّ — ولا حاز مثلهنَّ العبادُ

خُلقٌ يُخجلُ النَّسيم من اللّطفِ — وبأسٌ يذوب منه الجمادُ

ظهرت منك للورى معجزاتٌ — فأقرَّت بفضلك الحسَّادُ

جلَّ معناك أن يحيط به الشعر — وتحصي صفاته النُقّادُ

وقد جمعت المجلّدات الكبيرة في مدائح أمير المؤمنين عليه السلام، وفضائله ومكارمه، ونظمت الملاحم

الكبرى في صفاته وشمائله. . . ، ويكفي في ذلك موسوعة يوم الغدير للعلّامة الأميني في اثني عشر مجلّداً التي تخصصت بذكر يوم الغدير وما يتعلّق به وما قال الشعراء من متقدّمين ومتأخرين في ذلك من روائع القريظ.

ونحن قطفنا من ذلك باقةً غنّاء وأخترنا مجموعة من روائع القصائد لشعراء متقدمين كالكميت وأبو تمّام والشّريف الرضي، ومتأخرين كالدّكتور مصطفى جمال الدين.

قصيدة الشريف الرضي عن يوم غدير خم:

نطقَ اللسانُ عن الضميرِ والبشرُ عنوانُ البشيرِ

الآن أُعْفَيتَ القلو بَ من التقلقلِ والنفورِ

وانجابتِ الظلماءُ عن وضَحِ الصباح المستنيرِ

إلى أن قال:

غدرَ السرورُ بنا وكا ن وفاؤه يومَ الغديرِ

يومٌ أطافَ به الوصـ ـيُّ وقد تلقّبَ بالأميرِ

فتسلَّ فيه وردَّ عا ريةَ الغرامِ إلى المعيرِ

وابتزّ أعمارَ الهمومِ بطولِ أعمارِ السرورِ

فلِغَيرِ قلبِكَ من يعلّلُ همَّهُ نُطَفُ الخمورِ

لا تقنَعنْ عندَ المطا لب بالقليلِ من الكثيرِ

فتبرّضُ الأطماع مثل تبرّض[1] الثَمَدِ الجرورِ[2]

هذا أوان تطاول الحا جاتِ والأملِ القصيرِ

---

(١) التبرّض - من تَبرّضَ -: إذا تبلّغ بالقليل من العيش.

(٢) الثّمد: الماء القليل. الجرور: البعيد القعر.

فـــانـــخْ لـــنـــا مـــن راحـــتـــيـــ ـــلكَ بـــلا الـــقـــلـــيـــلِ ولا الـــنـــزورِ

لا تـــحـــوجـــنَّ إلـــى الـــعـــصـــا ب وأنـت فـي فـي الـضـرّعِ الـدرورِ

آثـــارُ شـــكـــرِكَ فـــي فـــمـــي وســـمـــاتُ ودِّك فـــي ضـــمـــيـــري

وقـــصـــيـــدةٌ عـــذراءُ مـــثـــ ـــلُ تـــألّـــقِ الـــروضِ الـــنـــضـــيـــرِ

من قصيدة لمهيار الديلمي في يوم الغدير:

هل بعدَ مُفترَقِ الأظعانِ مجتمعُ ... أم هل زمانٌ بهم قد فاتَ يُرتجَعُ

تحمّلوا تَسَعُ البيداءُ ركبَهمُ ... ويحملُ القلبُ فيهم فوقَ ما يَسعُ

مغرِّبين همُ والشمسَ قد ألفوا ... ألاَّ تغيبَ مغيباً حيثما طلعوا

شاكين للبَيْنِ أجفاناً وأفئدةً ... مفجّعين به أمثالَ ما فجعوا

تخطو بهم فاتراتٌ في أزمّتِها ... أعناقُها تحت إكراهُ النوىٰ خُضُعُ

تشتاق نعمانَ لا ترضىٰ بروضتِهِ ... داراً ولو طابَ مصطافٌ ومرتبَعُ

فداء وافين تمشي الوافياتُ بهمْ ... دمعٌ دمٌ وَحَشَاً في إثرِهم قِطَعُ

الليلُ بعدهُمُ كالفجرِ متّصلٌ ... ما شاء والنومُ مثلُ الوصلِ منقطِعُ

أو ليتَ ما أخذَ التوديعُ من جسدي ... قضى عليَّ فللتعذيبِ ما يدعُ

وعاذلِ لجّ أعصيه ويأمرُني ... فيه وأهربُ منه وهو يتّبعُ

يقول: نفسَك فاحفظها فإنّ لها ... حقّاً وإنّ علاقاتِ الهوى خدَعُ

روِّح حشاك بِبَردِ اليأس تسلُ به ... ما قيل في الحبِّ إلاّ أنّه طمعُ

والدهرُ لونانِ والدنيا مقلّبةٌ ... الآنَ يعلمُ قلبٌ كيف يرتدعُ

هذي قضايا رسولِ اللهِ مهملةٌ ... غدراً وشملُ رسولِ اللهِ مُنصدعُ

والناسُ للعهدِ ما لاقوا وما قربوا ... وللخيانةِ ما غابوا وما شَسَعوا[1]

وآلُـهُ وهـمُ آلُ الإلٰـهِ وهـمْ ... رُعاةُ ذا الدينِ ضِيموا بعده ورُعُوا

مـيـثـاقُـهُ فـيـهـمُ مـلـقـىً وأمّـتُـهُ ... مع من بغاهم وعاداهم له شِيَعُ

تُضاعُ بيعتُهُ يومَ الغديرِ لهمْ ... بعد الرضا وتُحاطُ الرومُ والبِيَعُ

مقسّمين بإيمانٍ همُ جذبوا ... ببوعها وبأسيافٍ همُ طبعوا

ما بين ناشر حبلٍ أمسِ أبرمه ... تُعَدُّ مسنونةٍ من بعدِهِ البِدَعُ

وبين مُقتنصٍ بالمكرِ يخدعُهُ ... عن آجلٍ عاجلٌ حلوٌ فينخدعُ

وقائلٍ لي عليٌّ كان وارثَهُ ... بالنصِّ منه فهل أَعطَوه أم منعوا

فقلت كانت هَناتٌ لستُ أذكرُها ... يجزي بها اللهُ أقواماً بما صنعوا

أبلغْ رجالاً إذا سمّيتُهمْ عُرِفوا ... لهم وجوهٌ من الشحناءِ تُمتقعُ

توافقوا وقناةُ الدين مائلةٌ ... فحين قامتْ تلاحَوا فيه واقترعوا

وفيم صيرتمُ الإجماعَ حجّتَكمْ ... والناسُ ما اتّفقوا طوعاً ولا اجتمعوا

أَمرٌ عليٍّ بعيدٌ من مشورتِهِ ... مستكرَهٌ فيه والعبّاس يَمتنعُ

---

(١) شسعوا: بعدوا.

وتـدّعـيه قـريشٌ بـالـقـرابـة والـ ... أنـصـار ولا رُفُـعٌ فـيـه ولا وُضُـعُ

فأيّ خُلفِ كخُلْفِ كان بينكمُ ... لـولا تُـلـفَّـقُ أخـبـارٌ وتـصـطَـنَـعُ

واسألهمْ يوم (خُمّ) بعد ما عقدوا ... له الولايةَ لِمْ خانوا ولِمْ خلَعوا

قـولٌ صـحـيـحٌ ونـيّاتٌ بـهـا نَـغَـلٌ ... لا ينفع السيفَ صَقلٌ تحته طَبَعُ[1]

إنكـارُهـمْ يـا أميرَ الـمؤمنينَ لـها ... بـعـد اعـتـرافِـهـمُ عـارٌ بـه ادّرعـوا

ونكـثُهـمْ بكَ مَـيْلاً عن وصـيّتـهـم ... شـرعٌ لَـعـمـرُكَ ثـانٍ بـعـده شـرعـوا

تـركـتَ أمـراً ولـو طـالـبـتَـهُ لـدرتْ ... مـعـاطـسُ راغـمـته كـيـف تُـجـتـدَعُ

صبرت تحفظُ أمرَ اللهِ ما اطّرحوا ... ذبّاً عن الدينِ فاستيقظتَ إذ هجعوا

---

(١) النغَل: الضغن وسوء النيّة، الطبع: صدأ.

قصيدة الكميت في غدير خم:

نفىٰ عن عينكَ الأرقُ الهجوعا وهمٌّ يمتري منها الدموعا

دخيلٌ في الفؤادِ يهيجُ سُقماً وحزناً كان من جَذَلٍ[1] منوعا

وتوكافُ[2] الدموع على اكتئابٍ أحلَّ الدهر موجَعَهُ الضلوعا

ترقرق أسحماً دَرَراً وسكباً يشبّه سحّها غرباً هَموعا[3]

لفقدانِ الخضارمِ من قريشٍ وخيرِ الشافعين معاً شفيعا

لدى الرحمٰن يصدعُ بالمثاني وكان له أبو حسنٍ قَريعا[4]

حَطوطاً في مسرّته ومولىٰ إلىٰ مرضاة خالقِهِ سريعا

وأصفاه النبيُّ على اختيارِ بما أعيا الرفوض له المذيعا

ويوم الدوحِ دَوحِ غديرِ خمٍّ أبانَ له الولايةَ لو أُطيعا

---

(١) الجذل: الفرح.

(٢) وكَفَ الدمع: سال.

(٣) رقرقت العين: أجرت دمعها. الأسحم: السحاب. يقال أسحمت السماء: صبّت ماءها. السحّ: الصبّ. الغرب: الدلو العظيمة. الهموع: السيّال.

(٤) القريع: السيّد. الرئيس.

ولكنَّ الرجالَ تبايعوها فلم أَرَ مثلها خَطَراً مبيعا

أضاعوا أمرَ قائدِهم فضلّوا وأقومهم لدى الحدثانِ ريعا

تناسَوا حقه وبَغَوا عليه بلا تِرةٍ وكان لهم قريعا

فقل لبني أميَّة حيثُ حَلُّوا وإن خفتَ المُهنّد والقطيعا

ألا أُفٍّ لدهرٍ كنتُ فيه هدانا طائعاً لكمُ مُطيعا

أجاع الله من أشبعتموهُ وأشبع من بجوركُمُ أُجيعا

من قصيدة دعبل الخزاعي يشير فيها ليوم الغدير:

تـجـاوبـنَ بـالإرنـان والـزفـراتِ نـوائحُ عُـجـمُ اللفظِ والنطقاتِ

يُخَبِّرنَ بالأنفاسِ عن سِرِّ أنفُسٍ أُسـارىٰ هـوىً مـاضٍ وآخـرَ آتِ

فأسعدن أو أسعفن حتىٰ تقوّضت صفوف الدجىٰ بالفجر منهزماتِ

على العرصاتِ الخالياتِ من المَها سلام شج صبٍّ على العَرَصاتِ

فعهدي بها خُضر المعاهد مألفاً من العَطراتِ البيضِ والخَفَراتِ

لياليَّ يعدينَ الوصال على القِلىٰ ويعدي تدانينا على الغُرُباتِ

وإذ هُنَّ يَلْحَظنَ العيون سوافراً ويَستُرْنَ بالأيدي على الوَجناتِ

وإذ كلَّ يومٍ لي بلحظيَ نشوةٌ يبيتُ بها قلبي على نشواتِ

فكم حسراتٍ هاجها بمُحَسِّرٍ[1] وقُوفيَ يوم الجمع من عَرَفاتِ

ألـم تـرَ لـلأيـام مـا جـرَّ جـورُهـا على الناس من نقصٍ وطولِ شتاتِ

ومن دُوَلِ المستهزئين ومن غدا بهم طالباً للنور في الظلماتِ

فكيف ومن أنّىٰ بطالبِ زُلفَةٍ إلى الله بعد الصومِ والصلواتِ

(١) وادي محسّر - بسكر السين المشدّدة -: حدُّ مِنىٰ إلىٰ جهة عَرَفة.

سوىٰ حبِّ أبناء النبيِّ ورهطِهِ وبُغضِ بني الزرقاء والعَبَلاتِ

وهند وما أدّت سُميّةُ وابنُها أولوا الكفرِ في الإسلامِ والفَجَراتِ

هُمُ نقضوا عهدَ الكتاب وفرضَهُ ومُحْكَمَهُ بالزورِ والشبُهاتِ

ولم تكُ إلاّ محنةٌ كَشَفَتْهُمُ بدعوىٰ ضلال من هنٍ وهَناتِ

تراثٌ بلا قربىٰ وملكٌ بلا هدىٰ وحكمٌ بلا شورىٰ بغير هُداةِ

رزايا أَرَتنا خُضرةَ الأفقِ حُمرةً ورَدّتْ أُجاجاً طعمَ كلِّ فراتِ

وما سَهّلَتْ تلك المذاهبَ فيهمُ على الناس إلاّ بيعةُ الفلَتاتِ

ولو قلّدوا الموصىٰ إليه أمورَها لزَمّتْ بمأمونٍ عن العثراتِ

أخي خاتَمِ الرُسْلِ المصفّىٰ من القذىٰ ومُفْتَرِسِ الأبطالِ في الغَمَراتِ

فإن جَحَدوا كان (الغديرُ) شهيدَهُ وبدرٌ وأُحدٌ شامخُ الهضباتِ

وآيٌ من القرآنُ تُتلىٰ بفضلِهِ وإيثاره بالقوتِ في اللّزباتِ

وغُرُّ خِلالٍ أدركتْهُ بِسبقِها مناقبُ كانت فيهِ مؤتنفاتِ[1]

---

(١) أنف كل شيء: أوّله، وروض أنُف: ما لم يَرْعَهُ أحد كأس أُنُف: لم يُشرَب بها. المستأنف: ما لم يسبق إليه.

قصيدة أبي تَمام الطائي في يوم الغدير:

أظبيةُ حيث استنّتِ الكُثُب العُفرُ رُوَيدَكِ لا يغتالكِ اللومُ والزجرُ[١]

أسرّي حَذاراً لم تُقيِّذك رِدّةٌ فيحسِرُ ماءً من محاسنِكِ الهذرُ

أراكِ خلالَ الأمر والنهي بوّةً[٢] عَداكِ الردىٰ ما أنتِ والنهيُ والأمرُ

أتُشغلُني عمّا هُرِعتُ لمثلِهِ حوادثُ أشجانٍ لصاحِبها نُكْرُ

ودهرٌ أساءَ الصُّنعَ حتىٰ كأنّما يُقَضّي نذوراً في مساءتيَ الدهرُ

له شجراتٌ خَيّمَ المجدُ بينها فلا ثَمَرٌ جانٍ ولا ورقٌ نَضْرُ

وما زِلتُ ألقىٰ ذاك بالصبرِ لابساً رداءَيهِ حتىٰ خِفتُ أن يَجزَعَ الصبرُ

وإنّ نكيراً أن يضيقَ بمن لهُ عشيرةُ مِثلي أو وسيلتُهُ مِضرُ

وما لامرىءٍ من قائلٍ يومَ عثرةٍ لعاً[٣] وخَدِيناهُ الحداثةُ والفقرُ

وإن كانتِ الأيامُ آضتْ وما بها لذي غُلَّةٍ وِردٌ ولا سائلٍ خُبْرِ

---

(١) استنَّت: عَدَت إقبالاً وإدباراً. الكُثُب: الجماعات. العُفر: الظباء التي يعلو بياضها حُمرة.

(٢) البوّة: الحمقاء.

(٣) لعاً: كلمة يدعىٰ بها للعاثر، ومعناه الارتفاع.

صَفِيُّك منهمْ مُضمِرٌ عُنجهيَّةً[1] فـقـائـدهُ تِـيْـهٌ وسـائِـقُـهُ كِـبْـرُ

إذا شام برقَ اليُسرِ فالقِربُ شأنُهُ وأنأىٰ من العَيّوقِ إن نالهَ عُسْرِ

أريني فتىً لم يَقْلِهِ الناسُ أو فتىً يـصـحُّ لـه عَـزْمٌ ولـيـس لـه وَقْـرُ

تَرَىٰ كلَّ ذا فضلٍ يطولُ بفضلِهِ علىٰ مُعتفيهِ والذي عندَهُ نَزْرُ

وإنَّ الذي أحذانيَ الشيبَ لَلّذي رأيتِ ولم تَكْمُلْ له السبعُ والعشرُ

وأخرىٰ إذا استودعتُها السرَّ بيَّنَتْ به كَرَهاً ينهاض من دونها الصدرُ

طغىٰ من عليها واستبدَّ برأيهمْ وقـولِـهِـمْ إلاّ أقـلَّـهـمُ الـكـفـرُ

وقاسَوا دُجىٰ أمْرَيهِمُ وكلاهما دليلٌ لهمْ أولىٰ به الشمسُ والبدرُ

سَيَحْدوكُمُ استسقاؤكمْ حَلَبَ الردىٰ إلىٰ هُوّةٍ لا الماءُ فيها ولا الخمرُ

سَئِمتم عبور الضحل خوضاً فأيّةً تعدّونها لو قد طغىٰ بكمُ البحرُ

وكنتم دماءَ تحتَ قِدرِ مفارةٍ علىٰ جهلِ ما أمست تفورُ به القِدرُ

فهلاّ زجرتمْ طائرَ الجهل قبل أن يجيءَ بما لا تبسؤون[2] به الزجرُ

طَوَيتُمْ ثنايا تخبؤون عُوارَها فأين لكمْ خِبءٌ وقد ظهر النشرُ

---

(١) العُنجُهيّة: الكِبْر.

(٢) بسأ بالشيء: أنسَ به ومرنَ عليه.

فعلتمْ بأبناءِ النبيِّ ورهطِهِ أفاعيلَ أدناها الخيانةُ والغدرُ

ومن قبله أخلفتمُ لوصيِّهِ بداهيةٍ دهياءَ ليس لها قَدْرُ

فجئتم بها بِكراً عَواناً ولم يَكُنْ لها قبلَها مِثْلٌ عَوانٌ ولا بِكرُ

أخوه إذا عُدّ الفَخارُ وصِهرُهُ فلا مثلُهُ أخٌ ولا مثلُه صِهرُ

وشُدَّ به أزْرُ النبيِّ محمدٍ كما شُدَّ من موسى بِهَارونِهِ الأزْرُ

وما زال كشّافاً دياجيرَ غَمْرَةٍ يُمزِّقُها عن وجهِهِ الفتحُ والنصرُ

هو السيفُ سيفُ اللهِ في كلِّ مشهدٍ وسيفُ الرسولِ لا ددانٌ ولا دثرُ[1]

فأيُّ يدٍ للذم لم يَبْرِ زَنْدَها ووجهِ ضلالٍ ليس فيه له أثرُ

ثوىٰ ولأهلِ الدينِ أمنٌ بحدّهِ وللواصمين الدينَ في حدِّه ذُعرُ

يسدُّ به الثغرَ المخوفَ من الردىٰ ويعتاضُ من أرض العدوِّ به الثغرُ

بأُحُدٍ وبدرٍ حين ماجَ برَجْلِهِ وفُرسانه أُحدٌ وماجَ بهم بدرُ

ويوم حُنينٍ والنضيرِ وخيبرٍ وبالخندق الثاوي بعقوتِهِ عمرو[2]

سما للمنايا الحُمْر حتىٰ تكشّفتْ وأسيافُه حمرٌ وأرماحُهُ حُمْرُ

---

(١) الدَدَان: الكيل الضعيف. الدثر: الصدىء.

(٢) العقوة: الساحة.

مشاهدُ كان الله كاشفَ كَرْبِها   وفارجَه والأمرُ ملتبسٌ إمْرُ

ويوم (الغدير) استوضح الحقَّ أهلُهُ   بضحياء[1] لا فيها حجابٌ ولا سترُ

أقام رسول الله يدعوهمُ بها   ليقربَهمْ عُرْفُ وينآهمُ نُكُرُ

يَمُدُّ بضبعيه ويُعلِمُ[2] أنّهُ   وليٌّ ومولاكمْ فهل خُبْرُ

يروحُ ويغدو بالبيانِ لِمَعْشرٍ   يروح بهم غَمْرٌ ويغدو بهمْ غَمْرُ[3]

فكان لهم جَهْرٌ بإثباتِ حقّهِ   وكان لهم في بَزِّهِمْ حقَّهُ جَهْرُ

أثَمَّ جعلتمْ حظَّهُ حدَّ مُرْهَفٍ   من البيضِ يوماً حظُّ صاحبِهِ القبرُ

بكفَيْ شقيٍّ وجَّهَتْهُ ذنوبُهُ   إلىٰ مرتعٍ يُرعَىٰ به الغَيُّ والوِزرُ

---

(١) وفي نسخة: بفيحاء.

(٢) من أفعل. ويظهر من الدكتور ملحم، شارح ديوان أبي تمّام أنّه قرأه مجرّداً من (عَلِمَ) لا مزيداً من (أعلم) كما قرأناه، ومختارنا هو الصحيح الذي لا يعدوه الذوق العربي.

(٣) الغَمْر: الكريم.

غديريّة للشاعر العبدي:

هذه القصيدة وجدت في مجموعة خطية قديمة لم يذكر فيها اسم صاحبها ولا تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، وإنما ذكر هو فيها لقبه (العبدي).

هل في سؤالِك رسمَ المنزلِ الخَرِبِ ... بُرْءٌ لقلبك من داءِ الهوى الوَصِبِ

أمْ حَرُّهُ يومَ وَشْكِ البَيْنِ يُبْرِدُهُ ... ما اسْتَحْدَثَتْهُ النوىٰ من دمعِك السَرِبِ

هيهات أن ينفدَ الوجد المثير له ... نأي الخليط الذي ولّىٰ ولم يَؤُبِ

يا رائد الحيِّ حسبُ الحيِّ ما ضَمِنَتْ ... له المدامعُ من ماءٍ ومن عُشُبِ

ما خِلتُ من قبل أن حالت نوىً قَذَفٌ ... أنّ العيون لهم أهمىٰ[1] من السُحُبِ

بانوا فَكم أطلَقوا دمعاً وكم أسَرُوا ... لُبّاً وكم قَطَعوا للوصلِ من سَبَبِ

من غادرٍ لم أكن يوماً أسِرُّ له ... غَدراً وما الغدر من شأن الفتى العربي

وحافظُ العهدِ يُبدي صَفحَتَي فَرَحٍ ... للكاشحين[2] ويُخفي وجدَ مُكتَئِبِ

بانوا قِباباً وأحباباً تصونُهُمُ ... عن النواظر أطرافُ القنا السلبِ

---

(١) همىٰ يهمي همياً: سال، هَمَت العين: صَبَّت دمعها.

(٢) كاشح فلاناً كِشاحاً ومكاشحة، وكشح له كَشْحاً: عاداه.

وخلّفوا عاشقاً مُلقىً رمىٰ خَلَساً بطرفه خِدْر مَن يهوىٰ فلم يَصِبِ

لهفي لما استودعَتْ تلك القبابُ وما حَجَبْنَ من قُضُبٍ عنّا ومن كُثُبِ

وفي الخدورِ بدورٌ لو بَرَزن لنا برّدن كلّ حشاً بالوَجْدِ مُلتهبِ

وفي حشاي غليلٌ بات يَضْرِمُهُ شوقٌ إلىٰ بَرْد ذاك الظَّلْم والشنَبِ[1]

يا راقد اللّوعةِ اهببْ[2] من كَراكَ فقدْ بان الخليط وما مُضنى الغَرامِ ثُبِ

أما وعصرِ هوىً دبَّ العزاء له ريب المنون وغالته يد النُّوَبِ

لأشرَقَنَّ[3] بدمعي إن نأتْ بهمُ دارٌ ولم أقضِ ما في النفس من إربِ

ليس العجيب بأن لم يبقَ لي جَلَدٌ لكنْ بقائي وقد بانوا من العجبِ

شِبْتُ ابنَ عشرين عاماً والفراقِ له سهمٌ متىٰ ما يُصِبْ شملَ الفتىٰ يَشِبِ

ما هزّ عَطْفيَ من شوقٍ إلىٰ وطني ولا اعترانيَ من وَجْدٍ ومن طَرَبِ

مثل اشتياقيَ من بُعْدٍ ومُنتزَحٍ إلى (الغريّ)[4] وما فيهِ من الحَسَبِ

---

(١) الظَّلْم بالفتح: ماء الأسنان وبريقها. الشنَبّ بياض الأسنان وحُسنها.

(٢) أهَبّهُ من نومِه: أيقظه.

(٣) أشْرَقَه بريقه: أي أغصَّهُ ومنعَهُ التنفس.

(٤) الغري: النجف.

أزكىٰ ثرىً ضَمَّ أزكى العالمين فذا ... خيرُ الرجال وهذا أشرفُ التُّرُبِ

إن كان عن ناظري بالغَيْبِ محتجباً ... فإنّه عن ضميري غيرُ محتجِبِ

إلى أن يقول:

يا راكباً جَسْرةً تطوي مناسِمُها ... ملاءةَ البِيد بالتقريب والجَنَبِ[1]

تُقَيِّدُ المُغْزِلَ الأدْماءَ في صَعَدٍ ... وتطلَح الكاسرَ الفَتْخاءَ في صَبَبِ[2]

تُثني الرياح إذا مرّت بغايتها ... حسرى الطلائح بالغِيطانِ والخَرِبِ

بلّغ سلاميَ قبراً بالغَرِيِّ حوىٰ ... أوفى البَرِيَّةِ من عُجمٍ ومن عَرَبِ

وأجعل شِعارَكَ للهِ الخشوعَ بهِ ... ونادِ خيرَ وصيِّ صِنو خيرِ نبي

إسمع أبا حسنٍ إنَّ الأُلىٰ عَدَلوا ... عن حُكمك انقلبوا عن شرّ مُنْقَلَبِ

ما بالُهمْ نكبوا نهجَ النجاة وقد ... وضَّحتهُ واقتَفَوا نهجاً من العَطَبِ[3]

ودافعوك عن الأمر الذي اعتَلَقَتْ ... زِمامَهُ من قُريشٍ كَفُّ مُغتصِبِ

---

(١) جنبه جنْباً جنَباً: أبعده ونحّاه.

(٢) المُغْزِل: من أغزَلت الظبية إذا ولَدَت الغزال. الأدم من الظِّباء: البيض تعلوهن طرائق فيهن غُبرة. طَلَح: أتعَب وأعيا. الكاسر: العُقاب. الفتخاء: الليّنة الجناح: الصَّبَبَ: ما انحدر من الأرض.

(٣) العَطَب: الهلاك.

ظلّت تُجاذبها حتىٰ لقد خَرَمتْ خَشاشها تَرِبَتْ من كفِّ مُجتذِبِ[1]

وأنتَ توسِعُهُ صَبراً علىٰ مَضَضٍ والحِلْمُ أحسَنُ ما يأتي مع الغَضَبِ

وكان أوّل من أوصىٰ ببيعته لك النبيُّ ولكن حال من كَثَبِ

حتىٰ إذا ثالثٌ منهمْ تَقَمَّصَها وقد تبدَّلَ منها الجدُّ باللعبِ

عادت كما بُدِئت شوهاءَ جاهلةً تَجُرُ فيها ذِئابٌ أكْلَةَ الغَلَبِ

وكان عنها لهم في (خُمٍّ) مُزْدَجَرٌ لمّا رَقَىٰ أحمدُ الهادي علىٰ قَتَبِ

وقال والناسُ من دانٍ إليه ومن ثاوٍ لديه ومن مُصْغٍ ومرْتَقِبِ

قُمْ يا عليُّ فإنّي قد أُمرتُ بأنْ أُبلّغ الناس والتبليغُ أجدَرُ بي

إنّي نصبتُ علياً هادياً عَلَماً بعدي وإنّ علياً خيرُ منتصَبِ

فبايعوك وكلٌّ باسطٌ يدَهُ إليك من فوق قلبٍ عنكَ مُنقلِبِ

عافُوك لا مانعٌ طَولاً ولا حَصِرٌ قولاً ولا لَهِجٌ بالغِشِّ والريَبِ

وكنتَ قُطْبَ رحى الإسلامِ دونَهم ولا تدور رحىً إلاّ علىٰ قُطُبِ

ولا تُماثِلُهمْ في الفضلِ مرتبةً ولا تُشابهُهُمْ في البيتِ والنَسَبِ

---

(١) خَرَم الخزرة: فَصَمها، شقّ وترة الأنف. الخشاشة: عود يجعل في أنفس الجمل.

إن تلْحَظِ القِرْنَ والعسَّالُ في يدِهِ   يَظَلَّ مضطرباً في كفِّ مُضطربِ
وإنْ هَزَزْتَ قناةً ظَلْتَ تُورِدُها   وريدَ ممتنع في الرَوع مُجتنبِ
ولا تَسُلُّ حُساماً يومَ مَلْحَمةٍ   إلاّ وتحجُبُه في رأسِ محتجبِ
لك المناقب يعيا الحاسبون بها   عَدّاً ويعجِزُ عنها كلُّ مكتتِبِ
ففي براءةَ أنباءٌ عجائبُها   لم تُطوَ عن نازحٍ يوماً ومُقتربِ
وليلةَ الغارِ لمّا بتَّ ممتلئاً   أمْناً وغيرُك ملآنٌ من الرُعُبِ
ما أنتَ إلاُّ أخو الهادي وناصرُهُ   ومُظْهِرُ الحقِّ والمنعوتُ في الكُتُبِ
وزوجُ بَضعتِهِ الزهراءِ يَكنُفُها[1]   دون الورىٰ وأبو أبنائه النُّجُبِ
من كلِّ مجتهدٍ في الله مُعْتضِدٍ   بالله معتقدٍ لله مُحتسبِ
هادينِ للرُشدِ إن ليلُ الضَّلالِ دَجا   كانوا لطارقهم أهدىٰ من الشُّهُبِ
لُقِّبتُ بالرفض لمّا إن منحتُهمُ   وُدِّي وأحسنُ ما أُدعىٰ به لقبي
صلاة ذي العرشِ تَترىٰ كلَّ آونةٍ   على ابن فاطمة[2] الكشّافِ للكُرَبِ
وابنيه من هالكٍ بالسُمِّ مُختَرمٍ   ومن معفَّر خدٍّ في الثرىٰ تَرِبِ

---

(١) كنَفَ الشيء: صانه وحفظه وحاطه وضمّه إليه.
(٢) فاطمة بنت أسد أم علي عليه السلام.

قصيدة الدكتور جمال الدين:

العام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠م) أقيم مهرجان في لندن لمرور ١٤ قرناً على يوم الغدير فكان للشاعر مصطفى جمال الدين فيه هذه القصيدة:

ظَمِيءَ الشِعرُ أم جَفاكَ الشُعورُ — كيف يَظما مَنْ فيه يجري الغديرُ

كيف تَعنو للجدبِ أغراسُ فِكر — لِعليٍّ بها تَمُتُّ الجذورُ

نَبتَتْ - بين (نَهجِهِ) وربيع — من بَنيهِ، غَمْرِ العَطاءِ - البُذورُ

وسقاها نَبعُ النَبيِّ، وهل بعـ — ـدَ نَمِير القُرآن يحلو نَميرُ؟

فَزَهَتْ واحةٌ، وَزَفَتْ غصونٌ — ونما بُرعِمٌ، ونَمّتْ عُطورُ

وأعدّتْ سِلالَها، للقِطافِ الـ — ـغَضِّ مِنّا، قرائحٌ وثغورُ

هكذا يَزدهي ربيعُ عَليٍّ — وتُغنّي على هواه الطيورُ

شَرِبتْ حُبَّة قلوبُ القوافي — فانتشتْ أحرفٌ، وجُنّتْ شُطورُ

وتَلاقىٰ بها خَيالٌ طَروبٌ — وَرُؤىً غَضّةٌ، ولفظٌ نضيرُ

ظامِيءَ الشِعرِ، ههنا يُولَدُ الشِعـ — ـرُ وتَنمو نُسورُهُ وتطيرُ

هـهـنَـا تَـنـشـرُ الـبـلاغـةُ فَـرعَـيْـ ـهـا، فَتَسْتافُ مِن شذاها الدهورُ
(هَـدَرَتْ) حَـولَـهُ بـكـوفـانَ يـومـاً (ثُمَّ قرّتْ). . وما يَزالُ الهديرُ[1]
وَسَـيـبـقـى يـهُـزُّ سَـمْـعَ الـلـيـالـي مِـنـبـرٌ مـن بـيـانـهِ مـسـحـورُ
تـتـلاقـى الأفـهـامُ مـن حـولـه شـتّـ ـىٰ: فَـفَـهْـمٌ عـادٍ، وفَـهـمٌ نَـصِـيـرُ
وَيَـعـودونَ . . لا الـعـدوُّ قَـلـيـلُ الـ ـزادِ مـنـهُ، ولا الـصـديـقُ فـقـيـرُ
ظامِيءَالشعرِ، ههنا: الشعرُ، والفَنُّ، وصَوتٌ، سَمْحُ البيانِ، جَهِيرُ
بِدعَةُ الشعرِ أنْ تَشُوبَ الغديرَ الـ ـعَذْبَ في أكؤسِ القصيدِ البُحورُ
وعَـلـيٌّ إشـراقَـةُ الـحـبِّ، لـو شِـيـ ـبَ بـسُـودِ الأحـقـادِ كـادَتْ تُـنـيـرُ

أيُّـهـا الـصَّـاعِـدُ الـمُـغِـذُّ مع الـنَّـجـ ـم هـنـيـئـاً لـكَ الـجَـنـاحُ الـخـبـيـرُ
قد بَهرتَ؛ (النجومَ) مَجْداً وإِشعا عـاً، وإنْ ظُـنَّ: أنـكَ الـمَـبـهـورُ
وبَـلَـغـتَ الـمَـرمىٰ، وإنْ قُـلَّ رِيـشٌ وانـطـوىٰ جـانِـحٌ عـلـيـه كَـسِـيـرُ

---

(١) إشارة إلى قول الإمام حين أريد منه الاستمرار في خطبته المعروفة بالشقشقية: أنها شِقْشِقَة هدرت ثم قرت.

ومَلأتَ الدنيا دَويّاً، فلا يُسـ ـمَعُ إلاّ هُتافُها المخمورُ

فَقُلوبٌ على هواكَ تُغنِّي وأكفٌ إلى عُلاكَ تُشيرُ

حِيَلٌ للخلودِ، قامَرَ فيها لاعِبيهِ.. والرابحُ المَقْمُورُ!!

وسيبقىٰ لكَ الخلودُ، وللغا فِينَ، في ناعِمِ الحريرِ، الغُمورُ

وستُبنىٰ لك الضَمائِرُ عُشّاً ولدنيا سِواكَ تُبنىٰ القصورُ

وستَبقىٰ إمامَ كلِّ شَريدٍ لَزَّهُ الظُلمُ، واجتواهُ الغُرورُ

وسيجري بمَرجِ عذراءَ من (حُجـ ـرِكَ) نَحرٌ.. تقفو سَناهُ النحورُ(١)

سيّدي أيها الضميرُ المُصفّىٰ والصراطُ الذي عليه نسيرُ

لك مَهوىٰ قلوبِنا، وعلى زا دِكَ نُربي عُقولَنا، ونَميرُ(٢)

---

(١) حجر بن عدي الكندي صاحب الإمام علي الذي طُلب منه البراءة منه، فأبى وقتل هو وابنه وأصحابه في مرج عذراء قرب دمشق.

(٢) نمير: فعل مضارع من مار. يمير عيالَهُ: أتاهم بالطعام والمعونة، ومنه الآية الكريمة: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥].

وإذا هَـزّتِ الـمَـخـاوفُ روحـاً وأرتـمـىٰ خَـافِـقٌ بـهـا مَـذعـورُ

قَـرَّبَـتْـنـا إلـى جـراحِـكَ نـارٌ وهَـدَانـا إلـى ثَـبـاتِـكَ نُـورُ

نحن عُشّاقُكَ المُلِحّونَ في العِشـ ـقِ.. وإنْ هامَ في هواكَ الكثيرُ

باعَدَتْنا عن قومِنا لُغةُ الحـ ـبِّ فظنّوا: أنّ اللُّبابَ القُشورُ

بعضُ ما يُبتلَىٰ به الحبُّ هَمْسٌ من ظنونٍ.. وبعضُهُ تَشهيرُ

إنّ أقسىٰ ما يحمِلُ القلبُ إنْ يُطـ ـلَبَ مِنهُ لِنَبضِهِ تفسيرُ

نحن نهواكَ، لا لشيءٍ، سوى أنّـ ـكَ من أحمدٍ أخٌ ووزيرُ

وحُسامٌ يحمي، وروحٌ تُفدِّي ولسانٌ يدعو، وعقلٌ يُشِيرُ

ومفاتيحُ من علومٍ، حَباها لكَ، إذ أنتَ كنزُها المذخورُ

ضَرَبَ اللهُ بين وَهجَيكُما حَدَ داً: فأنتَ المَنارُ وهوَ المُنِيرُ

وإذا الشمسُ آذنَتْ بمَغيبٍ غَطّتِ الكونَ من سَناها البدورُ

نحن، يا قومَنا، وأنتُمْ على دَر بٍ، سَواءٍ، يَلَذُّ فيه المَسيرُ

غيرَ أنّا نَسري إلى الوحدة (الكبـ ـرىٰ) وندري: أنّ الطريقَ عَسيرُ

في مَتِيهٍ تناهَبَتْهُ الأعاصيـ ـرُ وجُنّت بجانبيهِ الصخورُ

وعلى دَربنا إلى القِمّةِ السمـ ـحاءِ،، شَوكٌ يُدمِي، ورملٌ يَمورُ

وبنو عمِّنا تُراوِحُ في السيـ ـرِ، وتدري: أنّ الوقوفَ خَطيرُ

ويقولونَ: إن نهراً من الفُر قَةِ يَنشَقُّ بيننا ويَغورُ

وعلى ضِفّتيهِ يمتَلىءُ التا ريخُ حِقداً.. فيستحيلُ العُبورُ!

صَدَقوا... غيرَ أننّا لا نُحِيلُ الـ أمرَ ما طالَ حولَهُ التفكيرُ

بعضُ ما يُستحالُ من وَحدَةِ الرأ يِ قُصورٌ، وبعضُهُ تقصيرُ

وإذا طابَتِ النوايا تلاقَتْ في هوىٰ الضِفّتينِ منا الجُسورُ

قارِبُونَا، نَقْرَبْ إليكمْ، وخلّوا الحقدَ تَغلي قلوبُهُ وتفورُ

فسيصحو الطُّهاةُ يوماً، وقد ذا بتْ بنارِ الأحقادِ، حتى القُدورُ

نحن، يا قومَنا، سُراةُ طريقٍ يَستوي بَدؤنا به والمَصيرُ

الغديرية

قصيدة شعرية طويلة فيها نفس ملحمي للشاعر العاملي الشيخ محمد حسين شمس الدين المولود في قرية مجدل سلم بجبل عامل لبنان سنة ١٢٨٠ والمتوفي سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤) تدور على حياة علي عليه السلام ومناقبه ووقائعه ومحورها ما قاله النبي في حق علي يوم غدير خم.

وقد طبعت القصيدة أكثر من مرة ومما جاء فيها:

اليوم أكملت فيه دينكم نزلت   ونعمة الله في الإسلام قد كملت

وألسن الشكر آيات الثناء تلت   إذا حجة المرتضى بالنص فيه علت

يوم الغدير فأضحى للورى عيدا

يوم به المصطفى من فوق منبره   علا وأدنى إليه صنو عنصره

وظل يتلو عليهم طيب مخبره   وحياً تنزل فيه من مطهره

فيا له من مقام كان مشهودا

يوم به قد أقام المرتضى علما   إذ كان من ذاته العليا يداً وفما

وقال من كنت مولاه فلا جرما   فالمرتضى هو مولاه الأمين كما

أوحى إلي به الرحمٰن تأييدا

فقال من قال في ذاك المقام بخ   أصبحت مولى الورى إذ كنت خير أخ

فكان أعلاهم حاشاه من بذخ   قدراً وقرآن حق غير منتسخ

والله مجده في الذكر تمجيدا

من مثله وسط بيت الله قد وضعا   ومن على كتف الهادي قد ارتفعا

ومن بتكسير أصنام محا البدعا   ومن بمرقد طه لم يبت فَزِعا

والكفر قد جاش إرعاداً وتهديدا

أما وعلياه لولا حد صارمه   ما انقض بنيان كفر من دعائمه

سبحانك الله راميه بهادمه   سل التاريخ تنبي عن ملامحه

كم قط معترضاً بالسيف صنديدا

سل يوم بدر وهل يخفى على أحد   وسل ذوي العلم ماذا كان في أحد

وعج على خيبر مستعلماً تجد   من المآثر ما يأتي على العدد

وما يشق على الأفهام تحديدا

يوم به فر من قد فر من رجل   وعادت الراية العظمى على خجل

وقال طه سأعطيها إلى رجل   يكر ليس بِهَيَّابِ ولا وكل

قد صيغ صارمه للفتح إقليدا

فمد كلٌّ إليها عنقه أملا   والمصطفى لا يرى منهم لها رجلا

فقال أين أخي الكرار وابن جلا   فجاءه لا يرى سهلاً ولا جبلا

فأبرأ الريق منه العين تضميدا

وكرَّ حيدرة الكرار مبتهجا   على اليهود يقد الهام والمهجا

فأسرعوا هرباً منه بغير حجى   استوثقوا دون باب الحصن مرتتجا

الحصن أمنع إحكاماً وتشييدا

وباب حصنهم نحو السماء دحا   براحة كم أدارت للحروب رحى

ومرحباً قده بالسيف فانكفحا   من بعدما كان يثني عطفه مرحا

سرعان وسَّده الرمضاء توسيدا

سل ابن ود زعيم الشرك كيف جرى   به ففي أمره ما أوضح الخبرا

يوم استفز جيوش العرب مبتدرا   إلى المدينة لا يبقي لها أثرا

وجال مقتحماً تلك الأخاديدا

وظل يدعو إليه من يبارزه   ولا يرى أحداً ممن يحاجزه

والمصطفى يتوخى من يناجزه   فقام من بهرت فيهم معاجزه

يستلفت المصطفى بالإذن ترديدا

فقال خير الورى للمرتضى علنا   هذا ابن ود لدى الهيجاء ما وهنا

وكان في قوله للقوم ممتحنا   فقال حيدرة الهيجا له وأنا

أولى به دونهم قتلاً وتشريدا

واستل مرهف عزم دونه القدر   ما أن تخلف عنه في الوغى الظفر

وانقض ما مسه جبن ولا خور   إلى الوغى والوغى ساحٌ لها خطر

عدو الخماسي نحو الماء مورودا

فقال عمرو ومن ذا أنت فانتسب   فلا أبارز إلا واضح النسب

فقال صنو النبي المصطفى العربي   أنا ابن أكرم أمٍّ في الورى وأب

استجمع العزم تقريباً وتبعيدا

فقال عمرو أما يخشى ابن عمك إذ   دعاك لي فإلى ظل المثقف لذ

وأعطني السلم إشفاقاً عليك وخذ   نصيحتي وبسيفي من حمامك عذ

لا يرهب الجذع البزل الجلاعيدا

فقال يا عمرو إني لم أهم جزعا   فكن لما أتوخى منك مستمعا

ارجع بجيشك أو كن للهدى تبعا أو لا فها أنا والهيجا وأنت معا

انظر بأمرك تصويتاً وتصعيداً

فراغ كل إلى صمصامه غضبا مستجمعاً عزمة منه أحد شبا

واستقبل المرتضى عمراً كما طلبا وأوغل السيف في ساقيه منتصبا

فخر منعفراً كالطود مهدودا

فكبر القوم بشراً حين جدله ضرباً وأكبرت الأحزاب مقتله

فدمر الكفر تاليه وأوله واستأصل البغي أعلاه وأسلفه

بضربة تركت أعلامهم سودا

فيا لها ضربة ما كان أبعدها صيتاً وأجملها ذكراً وأحمدها

فاسأل به العرب من للحرب أخمدها وسل عتاب قريش كيف بددها

بذي الفقار أبو السبطين تبديدا

ولائيات

للشاعر الحسن بن علي بن جابر:[1]

(أ)

إنْ قيلَ من خيرُ الورى بعد النّبي المرسَلِ؟

ومَنِ المواسي، والمواخي والموالي والولي؟

ومَنِ الَّذي في الرَّوعِ عن أعدائهِ لم ينكلِ؟

إن قيل من ذا حاز هذ ي المكرمات؟ فقل: علي

خيرُ البريَّة والإمامُ البرُّ بالنَّصِّ الجلي

قد نصَّها فيه رسول الله عن أمر العلي

---

(١) أمير شعراء اليمن، المتوفى سنة ١٠٧٩ للهجرة، أوقف شعره لمديح آل محمد، ومن ذلك قوله:

مدحي لكم يا آل طه مذهبي وبهِ أفوزُ لدى الإله وأفلحُ

وأودُّ من حبّي لكم لو أنَّ لي في كلِّ جارحةٍ لسانٌ يمدحُ

«يـوم الـغـديـر» بـمـحـفـلِ أعـظـم بـه مـن مـحـفـلِ

(ب)

أَغيرَ أبي السّبطِ للمصطفى أجابَ ولبّاه لمّا دعا؟
وصَلّى وكُلُّهم مشرِكٌ وزكّى بخاتَمةٍ راكِعا؟
وقد كَان للمصطفى ثانياً فلِمْ جعلوه لهم رابعا؟
علامَ إلى الذّكر لم ترجَعا غداةَ الخلافِ ولم تفزعا؟
كأنّكما لحديثِ الغديرِ وعقدِ الولاية لم تسمعا!
ظلمتم نبيَّ الهدى أجره وقتّلتم أهله أجمعا!
رَعَاكم ولم يألُ في هديِكم فهلاً رَعَيتم لَهُ ما رعَى؟
فلا رحِمَ الله من قد غدا لأرحام خير الورى قاطعا!

(ج)

يا معشرَ النُّصَّابِ لا نلتمُ غداً مِنْ رحمةِ اللهِ العليِّ نصيبا
كَمْ ذا إلى آلِ النَّبيِّ محمَّدٍ أضحت عقاربكم تدبُّ دبيبا
عمداً تناسيتم مقالةَ أحمدٍ إذ قام في يومِ الغدير خطيبا
الحقُّ مُتَضِحٌ ولكن الشقا أعمى بصائر منكمُ وقلوبا
والنَّصُّ مثلُ الشَّمسِ لا يخفى ولا يُضحي بغيم عنادكم محجوبا

(د)

لَقَدْ أَنكروا في شأنِهِ بعد (أحمدٍ) مِنَ النَّصِّ أمراً ليس ينكره العقل
وقَد نوَّه المختارُ طه بذكره وقالَ لهم: هَذَا الخليفةُ والأهلُ
وولاَّه في يومِ الغدير ولايةً على الخلقِ طُرّاً ما له أبداً عزلُ
ونَصَّ عليه بالإمامةِ دونهم ولو لم يكن نصاً لقدّمه الفضلُ
أليسَ أخاه والمواسِي بنفسه إذا ما التقى يوم الوغى الخيلُ والرَّجْلُ
أما كان أدناهم إليه قرابةً وأكثرهم علماً إذا دهم الجهلُ

أمـا كـان أوفـاهـم إذا قـال ذمَّـة　　وأعـظمهـم حلماً إذا زلّتِ النَّعلُ

وأفصحهم عند التّلاحي وخيرهم　　نـوالاً إذا ما شيـم نـائِلُـه الجزلُ

الفهرس

المبحث الثاني: يوم الغدير

المبحث الثالث: الغدير في الأدب العربي


اليوم أكملت فيه دينكم نزلت
ونعمة الله في الإسلام قد كملت
وألسن الشكر آيات الثناء تلت
إذا حجة المرتضى بالنص فيه علت
يوم الغدير فأضحى للورى عيدا
يوم به المصطفى من فوق منبره
علا وأدنى إليه صنو عنصره
وظل يتلو عليهم طيب مخبره
وحياً تنزل فيه من مطهره
فيا له من مقام كان مشهودا
يوم به قد أقام المرتضى علماً
إذ كان من ذاته العليا يداً وفما
وقال من كنت مولاه فلا جرماً
فالمرتضى هو مولاه الأمين كما
أوحى إليَّ به الرحمن تأييدا
دار المرتضى
بيروت - لبنان - ص.ب. ٢٥/١٥٥ الغبيري
هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٨٤٠٣٩٢
E-mail:mortada14@hotmail.com